لمحات في الشعر العباسي

الأستاذ الدكتور
ثائر سمير حسن الشمري
جامعة بابل - كلية التربية الأساسية



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

لمحات

في الشعر العباسي

الاستاذ الدكتور

ثائر سمير حسن الشمري

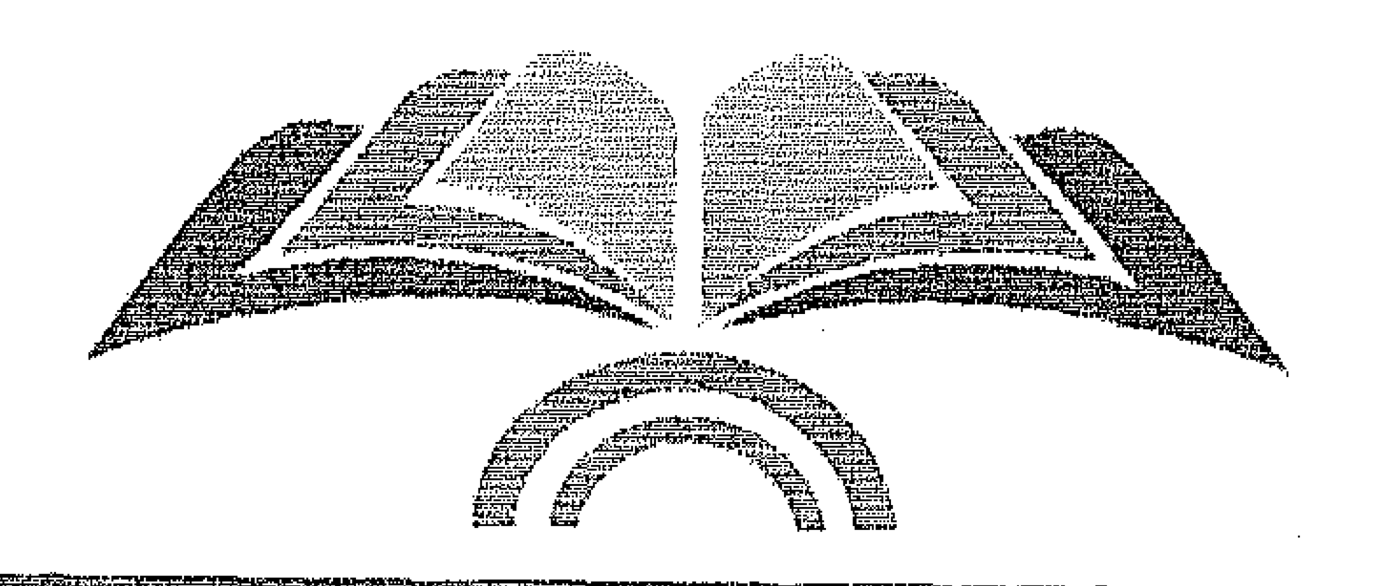
جامعة بابل / كلية التربية الأساسية

الطبعة الأولى

2014م - 1435هـ



دار الرضوان للنشر والتوزيع - عمان





للنشر والتوزيع

لمحات في الشعر العباسي

أ. د. ثائر سمير حسن الشمري

الواصفات:

الأدب العربي// النقد الأدبي// التحليل الأدبي/

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/2/556)

ردمك ISBN 978-9957-76-238-4

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 2244 لسنة 2012

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان - الاردن - العبدلي - شارع الملك حسين

قرب وزارة المالية - مجمع الرضوان التجاري رقم 118

هاتف: 4616436 6 962+ فاكس: 4616435 6 962+

ص. ب. :926414 عمان 11190 الأردن

E.mail:gm@redwanpublisher.com

:gm.redwan@yahoo.com

www.redwanpublisher.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

صدق الله العظيم

سورة آل عمران: الآية 74

الإهداء

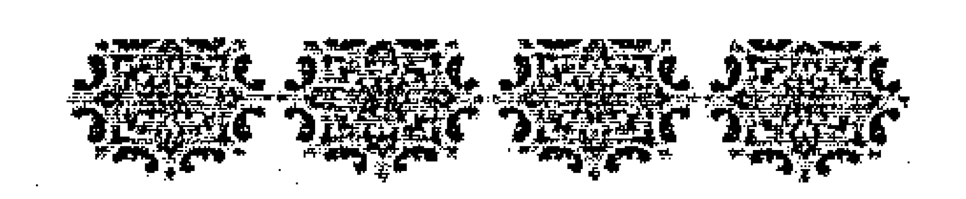
لأني شجرة أُقتُلِعَتْ جذورها من أرضك الحبيبة

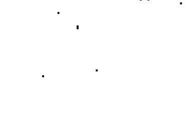
ولأنكِ بيتي الأول

ولأنك بغداد

أُهدي إليكِ وحدكِ كتابي هذا

الباحث





الفهرس

الفصل الاول

لمحات بغدادية في الشعر العباسي

الفصل الثاني

لمحات أسلوبية في شعر الصاحب بن عباد







الفصل الثالث

لمحات من الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي

الفصل الرابع

لمحات من وصف الربيع في الشعر العباسي





المقدمة

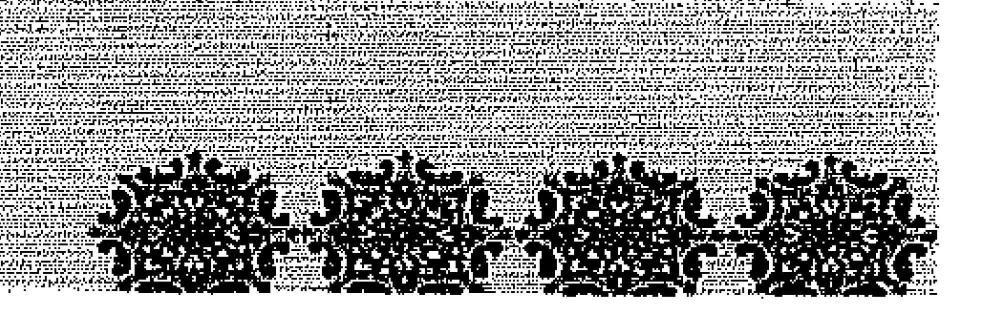
الحمد لله حمداً كثيراً منشئ الكون ومدبّره تدبيرا، والصلاة والسلام على أخلص أنبيائه فكان بشيراً ونذيراً، محمد بن عبدالله الذي أدخل في قلوب المؤمنين السرورا، والسلام على آله الطيبين الذين بذلوا من أجل الإسلام النّحورا، وعلى أصحابه الأوفياء ممن لم يقل كلمة زورا.

وبعد...

استكمالاً لما بدأناه في ضمّ دراساتنا التي نشرناها في الماضي البعيد والقريب، وإعماماً للفائدة العلمية للباحثين وعشاق الأدب على السواء، قررنا نشر كتابنا هذا الذي يضمّ بين جلاديه أربعة أبحاث، اختصت كلها في الشعر العباسي، فكانت تسمية الكتاب على النحو هذا (لمحات في الشعر العباسي)، فكان البحث الأول يتحدث عن بغداد، وعنى الثاني بالكشف عن أسلوب الصاحب بن عباد الشعري الذي انماز عن غيره، في الوقت الذي تناولنا فيه في البحث الثالث انتقادات الشعراء العباسيين لمظاهر اللهو والفساد التي انتشرت في العصر العباسي، وختمنا الكتاب بالبحث الرابع الذي كان بحثاً جمالياً يدرس جمال الطبيعة والشعر على السواء، إذ اعتنى بوصف الربيع في الشعر العباسي.

وبعيداً عن التفاصيل التي سنتكرها للقرّاء الكرام حين يقلبون صفحات كتابنا، نقول: إننا حاولنا في دراستنا الأولى إعطاء صورة واضحة عن رؤية بغداد من لدن الشعراء العباسيين، وكيف تعاملوا معها من مختلف الجوانب، مدحاً او هجاءً، إعجاباً أو ذمًّا، كما حاولنا رصد الأسباب التي دعت الشعراء للرغبة فيها، أو للرغبة عنها، فضلاً عن الوقوف على ما قيل بخصوص الفتنة التي حلّت بها في زمن الأخوين الأمين والمأمون.





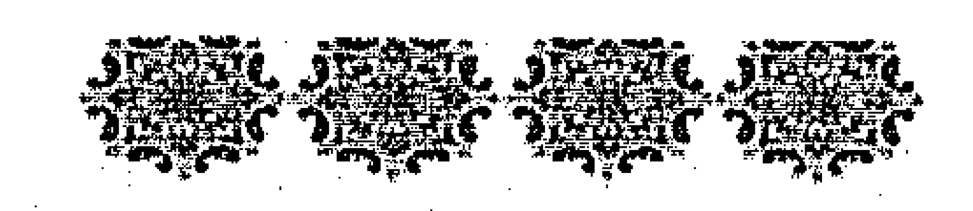


ولأن الصاحب بن عباد واحدٌ من أبرز الشخصيات في العصر العباسي على مختلف الصُّعُد سواءً السياسية منها أو الأدبية، قرّرنا دراسة ما انماز به من اسلوب شعري، فكانت الدراسة الثانية (لمحات اسلوبية في شعر الصاحب بن عباد)، إذ اتصف بمميزات جعلته متفرداً بها ممّا أهله ليكون ظاهرةً شعريةً فريدةً في اسلوبها كما سنرى.

وجاءت الدراسة الثالثة لتلقي الضوء على مواقف الشعراء العباسيين من كل ما هو سلبي ومناف للدين الإسلامي في المجتمع وقتذاك، وأقصد (لمحات من الانتقاد الاجتماعي للشعر العباسي)، وفي الوقت نفسه فانّ هذه الدراسة تغير المفهوم الخاطئ الذي تصوّر أصحابه ان العصر العباسي كان كله مجوناً من لدن المجتمع، فكثرة الشعر المُنْتَقِد لمثل تلك السلوكيات التي لا تتلاءم مع دستورنا ومنهجنا الديني دليلٌ على عدم انغماس الشعراء كلهم بذلك المجون أو المجتمع بشكل عام.

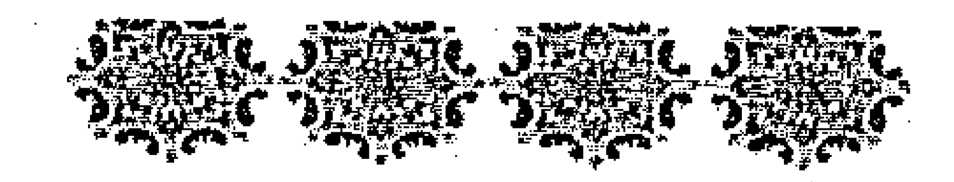
وبغض النظر عن القضايا السلبية التي تحدث عنها الشعراء العباسيون وانتقدوها، فقد رأينا أن النصوص الشعرية المنتقدة للمجتمع انمازت بميزة مهمة اضفت عليها ديمومة وحيوية، ألَا وهي عصريتها التي يشعر بها القارئ وأعني بذلك ان من يقرأها بمعزل عن معرفة العصر الذي أُبدِعَتْ فيه، سيعتقد انها نصوص قيلت في عصرنا هذا، وعالجت مشكلات مجتمعنا في الوقت الراهن، وفي ذلك ما يكسبها صفة الخلود والتواصل على مرِّ الأجيال.

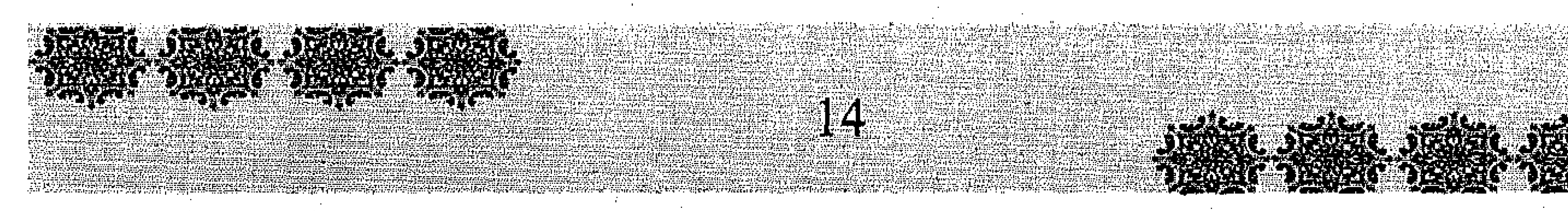
وكما قلت آنفاً فان الدراسة الرابعة من هذا الكتاب(لمحات من وصف الربيع في الشعر العباسي) كانت دراسة جمالية من ناحيَتَي الشكل والجوهر، ففضلاً عن جمال الطبيعة في فصل الربيع وجمال النصوص الشعرية التي أبدع فيها الشعراء، جاءت الفنون البيانية كالتشبيه والاستعارة، والبديعية كالجناس والطباق، في القصائد التي حاكت جمال فصل الربيع، ونسيمه



العذب، لتضفي جمالاً أخّاذاً آخر على جماله الطبيعي من ناحية، ولتؤكد مقدرة الشعراء العباسيين على منافسة الطبيعة في جمالها، من خلال جمال نظمهم فيها من النواحي المختلفة، فغدت قصائدهم في الربيع روضة من رياضه المزدهرة، بما وفّره الشعراء لها من خبرات فنية، ومقدرة لغوية فذّة، استطاعت أن تنقل لنا صورة الربيع الجميلة بكل صدق واحساس.

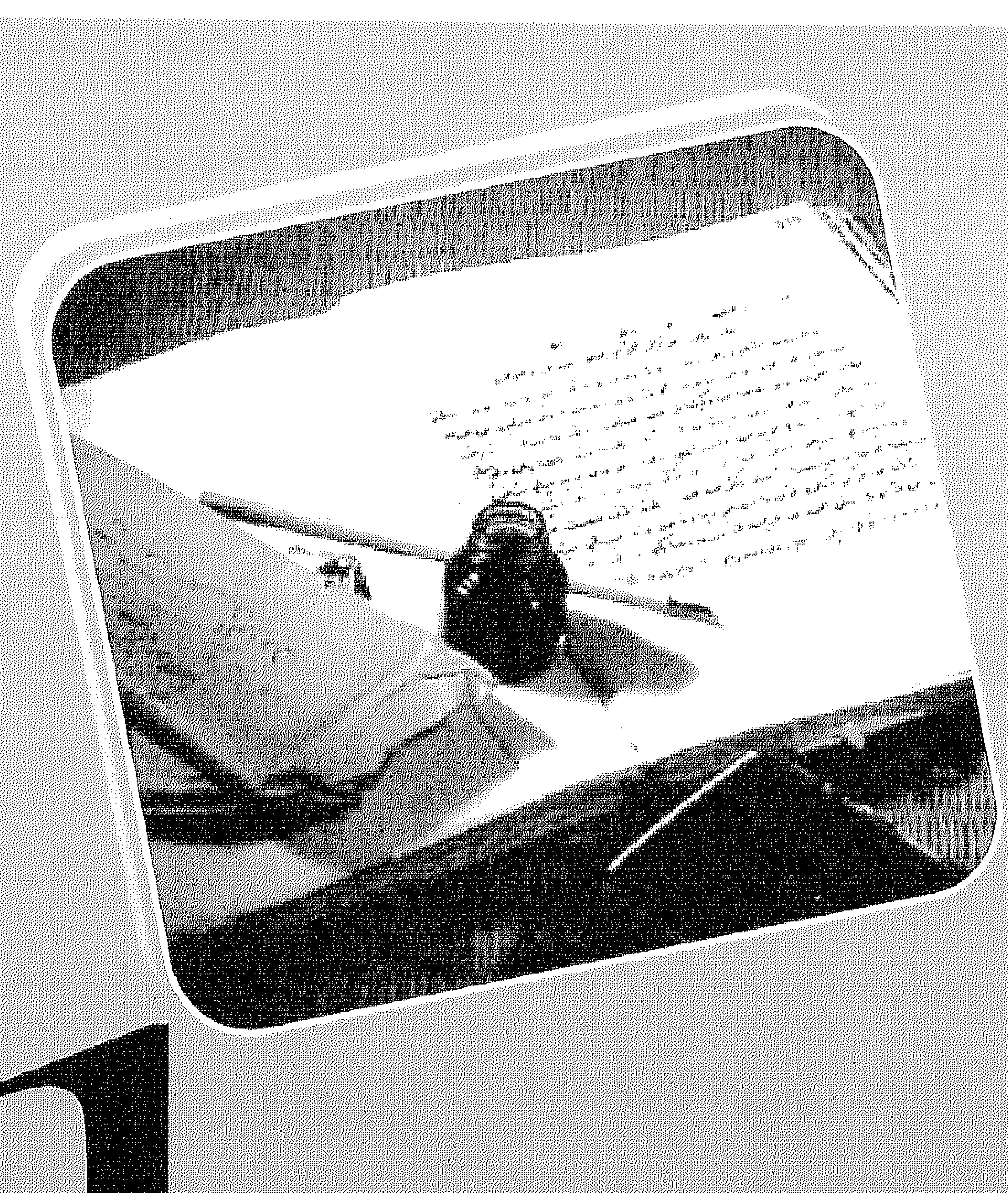
هذه ببساطة متناهية مضامين كتابنا، فهي ابحاث تناولت ثيمات مختلفة من ثيمات الشعر العباسي الراقي بأسلوبه ولغة أصحابه، تلك اللغة التي بنوا – بوساطتها- صروحهم العالية، فنقشوا أسماءهم على الصخور والجبال، وفي الختام أتمنى أن يستفيد الباحثون وهواة الشعر والأدب من كتابي هذا، وان يدعوا لصاحبه دعاءً حسنًا.



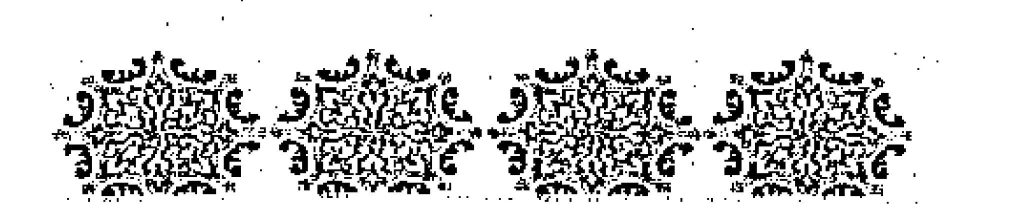



الفصل الأول

لمحات بغدادية
في الشعر العباسي



1





الفصل الأول

لمحات بغدادية في الشعر العباسي

توطئـــة:

كانت بغداد قرية صغيرة على ضفاف نهر دجلة قبل أنْ يفكر المنصور بجعلها عاصمة للامبراطورية العباسية، ولكن بعد أنْ تم له الأمر ببناء بغداد على أفضل ما يكون في ذلك الوقت، أقصد في منتصف القرن الثاني الهجري، غدت بغداد قبلة العالم من النواحي جميعاً، فقهاً وعلماً وحضارة وأدباً، ولاسيما الشعر، إذ توجّه إليها الشعراء من الأمم كافة لغرض الشهرة والثروة على حدٍّ سواء، كونها موطناً لذوي الجاه والسلطان من الخلفاء والوزراء وسراة القوم ومَنْ شاكلهم من الوجهاء مِنَ المستويات كافة، ومنذ ذلك الحين أصبحت بغداد أشهر مدينة عربية واسلامية على الاطلاق، وكانت مضرب الأمثال في جمالها على مختلف الصعد، حتّى قيل :إنّ مَنْ لَمْ يَرَها كأنّما لم يَرَ الدنيا، قال البغدادي: ((حدّثني عبد العزيز بن علي الوراق قال: سمعت محمد بن أحمد بن يعقوب الجرجرائي يقول: سمعت أحمد بن يوسف بن موسى يقول: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: قال لي محمد بن ادريس:



يـايونس دخلـتَ بغـداد؟ قلـت: لا. قـال يـا يـونس مـا رأيـت الـدّنيا ، ولا رأيـت الناس))[1].

وما يهمّنا من ذلك هو ذكر بغداد في الشعر العباسي من لدن كثير من الشعراء العباسيين، والقصد من ذلك تعرّف وجهات نظرهم فيما يتعلق ببغداد من مختلف الجوانب، وللوقوف على أسباب مدحهم لهذه المدينة التاريخية العريقة، أو رفضهم لها بدوافع مختلفة، وما بين هذا وذاك من أمور مختلفة تطرّق لها الشعراء في قصائدهم ومقطوعاتهم.

ونجد أنّ من الضروري الاشارة الى أننا لم نقف عل كلّ ما قيل بخصوص بغداد من لدن الشعراء، وإنّما اكتفينا ببعض اللقطات التي رأينا أنها وافية لاعطاء صورة واضحة عن رؤية الشعراء لبغداد في تلك الحقبة الزمنية المهمة من تاريخنا العربي الاسلامي، لذا أسمينا البحث بـ (لمحات بغدادية) في اشارة صريحة الى عدم استقرائنا للمأثور الشعري كله في تلك الحقبة.

مدح بغداد:

حظيت بغداد باهتمام الشعراء العباسيين كثيراً، إذ خصّصوا حيِّزاً من دواوينهم للاشادة بها، وذكر ميزاتها، حبًّا لها، واعجاباً بها، فهي- لدى بعضهم – حصنٌ للملوك تحميهم من الأعداء فيما لو أرادوا اقتحامها، وسفك دماء أهلها:

بغـداد حِصْـنُ المُلـوكِ تُـؤمِنُهُمْ   مِـن كـلّ بـاغٍ يُخْشـى تَـوَرُّدُهُ[2]

وبفضل جمال مدينة بغداد، نجد بعض الشعراء يبدعون في وصفها، فالسلامي يشبّهها بالبحر الذي يكون ساحلاه عبارة عن جواهر، في الوقت الذي يشبّه فيه نهر دجلة بالحديقة التي لاتحتوي إلّا على أزهار الشقيق المعروفة بجمالها، وذلك في قوله:

وبغـدادُ بحـرٌ سـاحلاه جـواهر   ودجلـةُ روضٌ طرّتـاه شـقيقُ[3]

وإنْ دلَّ ذلك على شيء، فإنّما يدلّ على اريحية الحياة فيها، وعلى سعادة الذين يعيشون في كنفها، ولاسيما الشعراء الذين قالوا مثل تلك الأبيات، وذلك ما أكّده فعلاً أحد الشعراء العباسيين حين قال:

وقالوا: طوى بغدادَ بغضاً وسلوةً   وبغـدادُ مغنًـى للحيـاة خَصـيبُ[4]

لقد شكّل تفضيل بغداد على غيرها من المدن علامة فارقة في وصفها في الشعر العباسي، فكثيراً ما وجدنا الشعراء يتغنون بما تقدمه لهم بغداد من ملذات العيش كلٌّ وما يشتهيه، فبعضهم يعشقها بسبب الحرية الكبيرة التي ينعم فيها أهلها فيما يتعلق بالخمور وشربها، فضلاً عن وسائل اللهو الأُخر، كما فعل مطيع بن إياس حين صوّر يومه فيها تصويراً دقيقاً بدءاً من الصباح الباكر وحتّى غروب الشمس، قائلاً:

ويـومٍ ببغـدادٍ نَعِمْنـا صـباحَهُ   علـى وَجْـهِ حَـوراءَ المـدامِعِ تُطْـرِبُ
ببيـتٍ تـرى فيـه الزُّجـاجَ كأنَّـهُ   نجـومُ الـدُّجى بـين النَّـدامى تَقَلَّـبُ



يُصَـرِّفُ سـاقينا ويَقْطِـبُ تـارَةً   فيـا طيبَهـا مَقْطوبـةً حـين يَقْطِـبُ

علينـا سـحيقُ الزَّعْفَـرانِ وفوقنـا   أكاليـلُ فيهـا الياسَـمينُ المـذهَّبُ

فما زلتُ أُسْقَى بين صَنْجٍ ومِزْهَرٍ   مـن الـرَّاحِ حتّـى كـادتِ الشَّـمْسُ

وكـان بعض الشعراء يعشقون بغداد عشقاً كبيراً فيتحسّرون لفراقها، ويذكرونها بألم شديد؛ لأنها الحبيبة كما يصفها أحدهم في قوله:

لعمـرك لَلبيـت الـذي لانَطُـورُه   أحـبُّ إلينـا مـن بـلاد نَطُورُهـا

أقولُ لصحبي يومَ أشرفتُ واجماً   ونفسي قد كان الهوى يستطيرُها

ألاَ حبّـذا دار السـلام وحبّـذا   أجـارع وعسـاء النقـيِّ فـدورُها

ومن مَرْقب الـزوراء أرضٌ حبيبةٌ   إلينـا محـاني متنِهـا وظهورُهـا

وسـقياً لأعلى الـواديين وللرّحى   إذا مـا بـدا يومـاً لعينـك نورُهـا (6)

وتمتاز نصوص بعض الشعراء في تفضيل بغداد بأنّ فيها ذكراً لأسباب ذلك التفضيل، فهي في بعضها – أي بغداد – جنّة الأرض، فلا توجد دار مثلها، ويصفو العيش فيها، في الوقت الذي لايصفو في غيرها، وتطول أعمار ساكنيها، وتنام بها عين الغريب، على العكس من غيرها من المدن، وما الى ذلك من الفضائل الأُخر التي ذكرها الشاعر في مقطوعته:

أعاينـتَ في طـولٍ مِـنَ الأرضِ أو   كبغـداد داراً إنّهـا جنّـةُ الأرضِ

صفا العَيشُ في بغداد، واخضرّ   وعيشُ سواها غير صاف ولا غَضٍّ

تطـولُ بهـا الأعمـارُ، إنَّ غـذاءها   مـريء، وبعـض الأرضِ أمـرؤ مـن

قضـى رَبُّهـا أَلّـا يمـوت خليفـة   بها، إنّه مـا شـاء في خلقه يقضـي



تنامُ بها عينُ الغريبِ، ولن ترى غريباً بأرض الشام يطمع في
فإنْ جزيت بغداد منهم بقرضها فما أسلفت إلّا الجميل من القرضِ
وإنْ رميت بالهجر منهم وبالقِلى فما أصبحت أهلاً لهجرٍ ولا

ولِمَ لا يفضّل الشعراء بغداد على غيرها مع كل ما تتضمّنه من المزايا الجميلة التي تجعلها أهلاً لذلك التفضيل ؟! فهي تحتوي على عجائب الدين والدنيا معاً، ففيها أجمل أنواع الورد قاطبة، التي تجعل النفوس مرتاحة حين النظر الى جمال ألوانها وأشكالها المختلفة، فضلاً عن القصور الشاهقات التي تشتمل على الجمال الخارق، وفيما عدا ذلك نجد السفن المرتفعة التي يزخر بها نهر دجلة وما تبثّه في نفس رائيها من المتعة بسبب زخارفها الجميلة وألوانها البرّاقة:

ماذا ببغداد من طيب أفانينِ ومن عجائب للدنيا وللدينِ
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة تندى، ومنبت خيري ونسرينِ
تحيا النفوسُ إذا أرواحها نفحت وحرشت بين أوراق الرياحينِ
سقياً لتلك القصور الشاهقات تخفي من البقر الأنسية العينِ
تستن دجلة فيما بينها فترى دهم السفين تعالا [كذا]
مناظر ذات أبواب مفتحةٍ أنيقة بزخاريف وتزيينِ
فيها القصور التي تهوي بأجنحةٍ بالزائرين الى القوم المزورينِ
مِن كُلّ حراقة يعلو فقارتها قصرٌ من الساج، عال ذو



وكان بعض الشعراء يتغنون بمحاسن بغداد حين يتركها بعض الخلفاء، ويقيمون في مدن غيرها لأسباب مختلفة، ومن ذلك ما كتبه العطوي من أبيات وأرسلها الى الخليفة المعتضد حين أقام في (سنجار)، مُغرياً إيّاه بالعودة الى بغداد، كونها خير بقاع الأرض، فنسيمها مختلف كما أشجارها، فهي جنّة الدنيا، فضلاً عن توافر الجمال فيها، ورجال العلم والأدب الذين لايوجد في الأمصار الأُخَر رجال مثلهم، فيقول :

يا مَنْ أقام على قرى سنجار	واختارها داراً بخير قرارِ
أتركتَ بغداد التي لنسيمِها	أرج من الأنوارِ والأشجارِ
هي جنّةُ الدنيا فكيف تركها	وسكنت داراً غير ذات قرارِ
أوليس فيها ألف ألف مثومٍ	في صحن غرّته سنا الأقمارِ
وكذاك فيها ألف ألف خريدةٍ	في وجهها متنزه الأبصارِ
أنظر بقلبك لا بعينِك هل ترى	كرجالها في سائرِ الأمصارِ
مَنْ ذا تصاحبه هناك وعنده	نتف مِنَ الأخبار والأشعارِ
ممزوجة بخلائق أدبية	في رقّة الماءِ الزلالِ الجاري
ولئن أقمت وبعتنا وجوارنا	بقريب عهدٍ أو حديث مزارِ
فأنا أقولُ بفرطِ حرٍّ في الحشا	وسعير نار غير ذات شرارِ
لم تستحل دمي وتعلم أنّه	مِنْ يَستحِل دمَ امرئ في النارِ(9)

أمّا ابن الرومي، فانه يعشق بغداد ويفضّلها على غيرها بسبب قضاء أجمل سني حياته فيها، وأقصد بذلك سنوات صباه وشبابه، فيقول:

بلدٌ صَحِبْتُ به الشبيبةَ والصِّبا ولبستُ فيه العَيْشَ وهْوَ جديدُ
فإذا تَمَثَّلَ في الضَّمير رأيتُهُ وعليه أفنان الشبابِ تميدُ[10]

وهو عندما يعود إليها من بعض أسفاره، نراه مفعماً بالسعادة، حتّى كأنه لم يَرَ الراحة في غيرها مطلقاً، فلا تصفو لذّته، ولا يطيب نعيمه إلّا فيها، لأنه يعتقد أنّ نسيم بغداد يشفي داء السقيم، وذلك كلّه طبعاً ينبع من حبّه لها، وشدّة تعلّقه بها:

عادَ عودي الى ثَراهُ القديمِ وصَفَتْ لذّتي وطابَ نعيمي
وتَنَسَّمْتُ من مشارق بغدا دَ نسيماً يشفي رَداع السقيمِ[11]

وعلى الرغم من حبّ الشاعر ابن الهبارية لبغداد، لما فيها من المحاسن والمزايا، فأنه كان يعاني الفقر فيها، ويعالج البؤس، ومع ذلك فقد ظلّ متمسّكاً بها، راغباً عن مفارقتها، فنسمعه يقول مثلاً:

بغدادُ دارٌ طيبُها آخذٌ نسيمه منّي بأنفاسي
تصلحُ للمُوسِرِ لا لامرئٍ يَبيتُ ذا فقرٍ وإفلاسِ
لو حلَّها قارونُ ربُّ الغنى أصبح ذا هَمٍّ ووسواسِ
هي التي تُوعَدُ لكنّها عاجلةٌ للطاعمِ الكاسي
حُورٌ وولدانٌ ومن كُلّ ما تطلبُه فيها، سوى الناسِ[12]

فبغداد من وجهة نظر الشاعر لاتصلح بوصفها سكنًا للفقراء، ولكن مع ذلك الرأي يرى أنّ مقامه فيها شرف له، إذ يقول في ذلك:

بغدادُ دارٌ رياضُها أُنُفُ والغيثُ في عنفوانها يَكِفُ





ومع تصاريفِ طيبِ لَذَّتِها مُقامُ مثلي بمثلها شَرَفُ
إذْ كُلُّ مَنْ حَلَّها وأوطنَها جواهرُ عند كسرها خَزَفُ
وإنْ رأيتَ الثيابَ رائقَةً فتلكَ دَرٌّ في جَوفِها صَدَفُ

وهناك ملاحظة بارزة في نصوص الشاعر ابن الهبّارية التي تحدّث فيها عن بغداد، ألَا وهي أنه كان يعد بغداد داراً فيها جميعاً، ولعلّ في ذلك ما يوحي بأنه كان شديد الارتباط بها، كما يعشق الانسان داره التي يسكنها فعلاً، فضلاً عن أنّه كان يعدّها دار الهوى والعشق التي لايفيق من حبِّها، لما تتحلّى به تلك الدار من الجمال الطبيعي الذي اتّصفت به نساؤها، ذلك الجمال الذي أصاب الشاعر بالسكر قبل الشراب على حدِّ قوله واصفاً جمال نسائها وصفاً دقيقاً:

لَهفي على بغدادَ دارِ الهوى فإنّني من حبِّها ما أفيقْ
وكُلُّ وجهٍ مثل شمسِ الضحى فوقَ قَوام مثل غصن رشيقْ
وكُلُّ رِدْفٍ وافرٍ وارِمٍ يحمله بالظلم خَصْرٌ دقيقْ
وكُلُّ لفظٍ طيّبٍ ممتِعٍ يُسكِرُ مِنْ قَبْلِ كؤوس الرَّحيقْ
ما شئتَ من دلٍّ ومن منظرٍ زاهٍ ومن حُسْنٍ وطيبٍ وضِيقْ (14)

الحنين إلى بغداد:

وكان كثير من الشعراء العباسيين يعربون في قصائدهم عن تشوّقهم لهذه المدينة الجميلة حينما كانوا يفارقونها لبعض الوقت، سواء أكان ذلك



الفراق بإرادتهم أم من دونها، فهم يتشّوقون لكلّ شيء فيها بألفاظ وعبارات يملؤها الحبُّ، ويغمرها الأسى، فهذا أشجع السلمي يحنّ الى أهل بغداد ويتشوق لهم، بل ويذرف الدموع على فراقهم، وذلك حين قال:

أَلَـا ليت حيًّا بالعراقِ عهدتهم	ذوي غبطةٍ في عيشِهم وليانِ
يرون دموعي حين يشتملُ الدجى	عليَّ وما ألقى من الحدَثانِ
إذن لـرأوا جسماً أضَرَّبه الهوى	وعين معنًّى جمة الهملانِ
أمن بئر ميمون يحنُّ صبابةً	الى أهل بغداد وتلك أماني
بعدت وبيتِ اللّهِ ممّن تحبّه	هواكَ عراقيٌّ وأنتَ يماني [15]

والعيد في بغداد غير العيد في مدينة سواها، وهذا ما يدعو بعض الشعراء الى ذكر ذلك في قصائدهم، أو أبياتهم المفردة إذا شئنا الدقة أكثر، فنرى أحدهم يبعث بالتهنئة لاخوانه في بغداد في الوقت الذي يكون عيده هو في مدينة غيرها نتيجة للحرب التي يشترك فيها، فيقول:

هنيئاً لاخواني ببغداد عيدُهم	وعيدي بحلوانٍ قراعُ الكتائبِ [16]

وفي بعض الأحيان يزداد الشوق الى بغداد أكثر من لدن بعض الشعراء، ولاسيما إذا ما كان الأمر متعلقاً بالنساء واللهو معهنّ، فصعوبة التواصل مع الحبيبة في غير بغداد يدعو الشاعر الى تذكّر مدينته بغداد، وتذكّر عهده بالهوى مع مَنْ يحبّ فيها، فلم يكن يجد مانعاً فيها يمنعه من اللهو مع حبيبته، لذا فقد كان ذلك دافعاً رئيساً لإثارة شوقه لبغداد، وحافزاً يدفعه الى الدعاء لبغداد وأهلها في قوله:



نَسيمُ المدامِ وبَردُ السَّحَرْ هُمَا هَيَّجا أبشوق [كذا] حتّى ظَهَرْ

تقول: اجتنبْ دارنا بالنهار وزُرنا إذا غابَ ضَوءُ القَمَرْ

فإنّ لنا حَرَساً إنْ رأوكَ نَدِمْتَ وأعطوا عليك الظّفَرْ

وكم صنعَ اللّهُ من مَرَّةٍ عليهم وقد أمِروا بالحَذَرْ

سقى اللّهُ بغدادَ من بلدةٍ وساكنَ بغداد صَوْبَ المَطَرْ

ونُبِّئْتُ أنَّ جواري القُصُو رِ صَيَّرْنَ ذِكْري حديثَ السَّمَرْ

أَلَا رُبَّ سائلةٍ بالعرا قِ عنّي وأخرى تُطيلُ الذِّكرْ

تقولُ عَهِدْنا أبا وائلٍ كَظَبي الفلاةِ المليحِ الحوَرْ

ليالي كنتُ أزورُ القِيانَ كأنَّ ثيابي بَهارُ الشَّجَرْ (17)

وقد يختلط الحنين والتشوق الى بغداد بالفخر لدى بعضهم، فيزعم أنّه إذا شاء أنْ تغنّي المغنيات في بغداد باسمه لفعل ذلك، وكذلك الحمام المطوّق، وما ذلك الغناء إلّا للإشادة بشجاعته وفروسيته، فهو بطل مغوار يستحقّ أن تُرْفَعَ البنان صوبه:

إذا شِئتُ غَنَّتْنِي، ببغدادَ قَيْنَةٌ وإنْ شئتُ غنّاني الحَمامُ المطوَّقُ

لباسي الحسامُ أو إزارٌ مُعَصْفَرٌ ودرعُ حديدٍ أو قميصٌ مُخَلَّقُ(18)

إنّ حبّ بعض الشعراء غير الاعتيادي لمدينة بغداد، جعلهم ينشدون أشعاراً تزخر بالحنين الطاغي، وتعبّر عن لوعة حقيقية لدى أصحابها بسبب فراقهم إيّاها، فاسحاق الموصلي لم يبتعد كثيراً عنها، وإنّما كان في مكان قريب منها مع الخليفة الواثق في الصالحية، ومع ذلك نراه يتألم لفراقها، الى الدرجة

التي تدفعه الى عدم الوداع حين يغادرها ، فضلاً عن توجيه الخطاب لنفسه في أبياته المشحونة بدفعة عاطفية عالية لأنّه لم يفارق بغداد عن كره لها ، وإنّما أُجْبِرَ على ذلك، فيقول:

أتبكي على بغدادَ وهي قريبةٌ فكيفَ إذا ما ازْدَدتَ منها غداً
لعَمركَ ما فارقتُ بغدادَ عن قِلىً لَوَ انّا وجدنا عن فراقٍ لها بُدّا
[....]
كفى حَزَناً أنْ رُحْتُ لم أستطع وَدَاعاً ولم أُحدِث بساكِنِها عَهْدا

وكذا الحال مع الشاعر نفسه حينما غادر بغداد مع الخليفة الواثق الى سامراء، إذ نراه ينظم أبياتاً نُدركُ الحنين من خلالها الى أهله فيها، كما نكاد نرى الحسرة على وجهه عن طريق الكلمات التي ضمّنها تلك الأبيات، ويبدو أنّ تلك الرحلة قد طالت عليه، فغدا مشتاقاً بدرجة كبيرة، وذلك واضح من لفظَتي (الصبابة والهوى)، فضلاً عن الألفاظ الأُخر التي تذكّره ببغداد، مثل (من ريح الجنوب) و (برد الندا)، و (الجثجاث) و (البسباس)، وما الى ذلك من الألفاظ المختلفة التي أثارت فيه الشوق لمدينته، يقول:

ياحبّذا ريحُ الجَنوبِ إذا بَدَتْ في الصُّبْحِ وهي ضعيفةُ الأنفاسِ
وقد حُمِّلَتْ بَرْدَ الندى [كذا] عَبَقًا من الجَثْجاثِ والبَسْباسِ
ماذا تهيجُ مِنَ الصَّبابةِ والهوى للصَّبِّ بعدَ ذهولِهِ والياسِ [20]

ويأتي التشوّق الى بغداد لدى بعض الشعراء مذكوراً باللفظ الصريح، وذلك ما فعله ابن الرومي حين ذهب مع الخليفة المعتضد باللّه الى (آمد)

لفتحها ، إذ نجد أنّه ذكر تشوّقه باللفظ (أحنّ) للدلالة على شدّة شوقه لبغداد ، وهو – فضلاً عن ذلك – يعترف بأنّه تركها قصداً طائعاً الخليفة ، ولكنه في الوقت نفسه يذكر أنّ قلبه قاصد بالهوى إليها بدرجة كبيرة ، ولكن الصحارى كانت تحول بينه وبينها ، لذا فانّ حنينه اليها كان حادًّا ؛ لأنه يعلم أنّ العودة إليها تحتاج الى وقت طويل ، لطول المسافة بينها وبين آمد :

أحنُّ الى بغدادَ ، والبيد دونها … حنينَ عميدِ القلب حَرَّانَ فاقدِ

وأتركها قصداً لآمِدَ طائعاً … وقلبي إليها بالهوى جِدُّ قاصِدِ [21]

وليحيى بن علي المنجم مقطوعة طريفة تتضمّن قصة مفادها أنّه كان مع الخليفة المعتضد في بعض أسفاره فدعاه قائلاً له : قلبي ببغداد وإنْ كان جسمي هاهنا ، فقُلْ عنّي شعراً في هذا المعنى أكتبُ به الى مَن أُريد ببغداد فإني قد رُمْتُ ذلك فلم يتّسق لي ، فقال على لسانه متشوقاً الى بغداد ومَنْ فيها :

هاهنا جسمٌ مقيمٌ … وببغدادَ فؤادي

وكذا كُلُّ مُحِبٌّ … باعَ قريباً ببعادِ

أملكُ الأرضَ ولكن … تملكُ الخودُ قيادي

غَلَبَ الشوقُ اصطباري … مثل غُلبي للأعادي

فأنا أحتالُ أنْ يخـ … ـفى بجهدي وهو بادي

ليس وادٍ لا أرى فيـ … ـه حبيبي لي بوادِ [22]

وإذا كانت المقطوعة هذه قد قالها الشاعر على لسان الخليفة ، فانه في مناسبة أخرى ، قال مقطوعة تشيد ببغداد وبالخليفة المكتفي بالله ، وذلك حين

أمر باخلاء سبيله من منفاه في (قرقيسيا)، وفي المقطوعة هذه يبدو حبّه لبغداد واضحاً الى حدٍّ كبير، وعشقه لها لايحتاج الى دليل، إذ يقول فيها:

عادَ ليلي القصيرُ في كرخ بغدا ... دَ بقرقيسيا عليَّ طويلا

أجميلاً أنْ تتركوني وتمضو ... ن، رهيناً بها غريباً ذليلا؟

مفرداً بالعقاب مشترك الذنـ ... ـب فصبراً حسبي بربّي وكيلا

إنْ قضى اللّهُ لي رجوعاً الى بغـ ... ـدادَ لا هالكاً بغمٍّي قتيلا

وأراني الخليفةَ المكتفي باللّهِ ... وابنَ الخلائقِ المأمولا

كالذي قد عهدتُ لا مُعْرضاً عنْـ ... ـني ولا واجداً ولا مستحيلا

كُلُّ شيءٍ أُسامُهُ هيِّن عنـ ... ـدي إذا الرأيُ منه كان جميلا[23]

لقد ولّد الشوق الى بغداد لدى بعض الشعراء العباسيين شحنات عاطفية كبيرة جدًّا، ممّا أضفى على أبياتهم بريقاً مؤثراً من الناحية المعنوية، إذ عمدوا الى اختيار ألفاظ أو جمل تعكس ذلك الشوق الحاد الى المتلقي بصدق كبير، فالعباس بن الأحنف مثلاً حين طال المقام به خارج بغداد، يتمنى العودة اليها سريعاً، عامداً الى اختيار لفظة (الاستبطاء) في بيته الذي أعلن فيه أمنيته تلك، كونها أكثر صدقاً في نقل احساسه وحقيقة شعوره الذي دفعه الى القول:

ليت شعري متى نَئُوبُ [كذا] الى ... ـدادَ؟ إنّا مُستبطئونَ الإيابا[24]

فقوله: (إنّا مستبطئون الإيابا) يحمل في طيّاته دلالة الشوق الكبير الى مدينته بغداد، إذ نقل تركيبه هذا شعوره الصادق بأمانة بالغة، ممّا جعل المتلقي ينفعل معه، ويمتزج إحساسه بإحساس الشاعر.

ويعمد في بيت آخر الى اختيار لفظة (التلفّت)، ليخبرنا من خلالها أنّه راغب عن فراق بغداد التي يعشقها كثيراً ويعشق مَنْ فيها، فهي (التلفّت) كانت ذات دلالة كبيرة في اختصار مراد الشاعر الذي من الممكن التعبير عنه بعشرات الكلمات لتوصيل الرسالة التي تقول: إنّه لا يودّ مفارقة بغداد، كما أنّه يذرف الدموع حين يتجاوز حدودها:

كمْ تَلَفَّتُ حِين جاوزتُ بغدا   دَ وأذرَيتُ من دُموعِي غُروبا [25]

في حين كان أشجع السلمي يعبّر عن شوقه لبغداد عن طريق التشبيه المؤلم، وذلك لأنه يعدّ ذكر بغداد أمامه بمثابة تحرّك سنان الرمح في داخل قلبه، وهذا يعني أنّه يموت حين تُذكر بغداد له؛ كونه فارقها منذ زمن بعيد، مع هيامه وشدّة تعلقه بها، وممّا لاشكّ فيه أنّ لجوءه الى التشبيه بالطريقة هذه يعلن عن تأزّم حال الشاعر نفسيّا بسبب فراقه المدينة التي يهواها كثيراً:

إذا ذُكِرَتْ بغدادُ لي فكأنّما   تَحَرَّكَ في قلبي شباةُ سنانِ [26]

ولم تبتعد رؤية اسحاق الموصلي عن رؤية أشجع السلمي، فهو الآخر تتقطع نفسه شوقاً حين يتذكر بغداد، أو يموت وجداً بها، وذلك في قوله:

إذا ذَكَرتْ بغدادَ نفسي تَقَطَّعَتْ   مِنَ الشّوقِ أو كادَتْ تموتُ بها



من خلال الأبيات السابقة، يمكننا تصوُّر المعاناة الكبيرة التي كان يشعر بها كثير من الشعراء العباسيين نتيجة فراقهم لبغداد، سواء أكانوا مجبرين على ذلك الفراق، أم كان بإرادة منهم، ففي المحصّلة النهائية أنهم عانوا كثيراً لفراقها، والدليل على ذلك ما انتجوه من أشعار نستنشق من خلالها رائحة ذلك الألم عن طريق الألفاظ والتراكيب التي احتوتها، وصوّرت بصدق عذابهم ذلك.

بغداد موطن الحبيبة:

ولأنّ بغداد موطن الحبيبة، فقد أكثر الشعراء من الحنين إليها لذلك السبب، بل إنّ بغداد لم تغدُ لدى بعضهم موطناً لولا وجود تلك الحبيبة، ولعل من أبرز أولئك الشعراء مطيع بن إياس الذي يصرّح في شعره عن رحيله من بغداد مع أصحابه الذين غادروها لولا تواجد حبيبته التي يعشقها فيها، قائلاً:

لولا مكانُكِ في مَدِينَتِهِمْ — لَظَعَنْتُ في صَحْبي الأُلى ظعَنُوا

أَوْطَنْتُ بغداداً بحبِّكُمُ — وبغيرها لولاكُمُ الوَطَنُ (28)

وكان العباس بن الأحنف يشتاق كثيراً الى بغداد، ويحنّ اليها باستمرار، ولا عجب في ذلك، فهي المدينة التي تسكنها حبيبته التي طالما تغزّل بها، وأعرب عن لوعته بغرامها، وأبان عن حسرته بالبعد عنها، لذا نراه مستثمراً كلّ فرصة من أجل ذكر بغداد، فحين يذكرها تتحرّك مشاعره

فتنتج قريحته بيتاً جميلاً يتضمّن طباقاً أجمل، يُعرب فيه الشاعر عن سهره خارج بغداد، في الوقت الذي تنام فيه مَنْ يهواها فيها، فيقول:

فإنْ تَكُ في بغدادَ نامتْ خَلِيّةً فطرفي بظهرِ القادِسيَّةِ ساهِرُ (29)

وهو إنّما يفضّل بغداد لأنها حصن منيع له ولحبيبته، فلا يتمكن الخوف منهما فيها، ولايخشيان عيون الحسّاد والوشاة، وبذلك يتمكنان من التواصل مع بعضهما من دون وجل:

حبّذا الملتقى بجانب بغدا دَ ومِنْ دُونِ ما نَخافُ الحصونُ
حيثُ لا نرهبُ العُيُونَ ولا تَظْـ ـهَرُ من جانبٍ علينا عُيُونُ (30)

وحين نُفِيَ أبو العتاهية الى الكوفة، واضطر الى ترك بغداد بسبب ذكره (عتبة) في شعره، أخذ يتشوّق اليها، ويذكر حبيبته فيها عن طريق مقطوعة جميلة في نسقها وترتيبها، فضلاً عن امتيازها بالسلاسة ووضوح التعبير، إذ أبانت عن شعور قائلها بمنتهى الصدق، فقد وجهها الى (عتبة) مباشرة ومن دون تسميتها باللفظ الصريح، شاكياً إليها أنّ مرضه إنّما كان بسبب حبّه لها، فهي روحه التي تسكن بغداد، في الوقت الذي يسكن فيه جسمه في الكوفة مجرّداً من الروح، فيقول:

قُلْ لِمَنْ لَسْتُ أُسَمِّي بأبي أنتِ وأُمِّي
بأبي أنتِ لَقَدْ أصْـ ـبَحْتِ مِنْ أكبرِ هَمِّي
ولقد قلتُ لأهلي إذْ أذابَ الحُبُّ لَحْمِي
وأرادُوا لي طبيباً فاكتَفَوْا مِنِّي بعلْمِي

مَـــنْ يَكُـــنْ يَجْهَـــلُ مـــا أَلْقَـــى فـــإنّ الحُـــبَّ سُـــقْمِي
إنَّ رُوحــــــي لَبِبَغْـــــــدا دَ وفي الكُوفَـــةِ جِسْــــمي [31]

وكان أبو تمام أشدّ اختصاراً من أبي العتاهية في الاعراب عن أنّ حبيبته في بغداد، فهو يعلن أنّ أهله في الشام، في الوقت الذي يكون فيه هواه في بغداد، قائلاً:

بالشام أهْلِي وبغدادُ الهَوى وأنـا بـالرَّقّتينِ وبالفُسطاطِ إخواني [32]

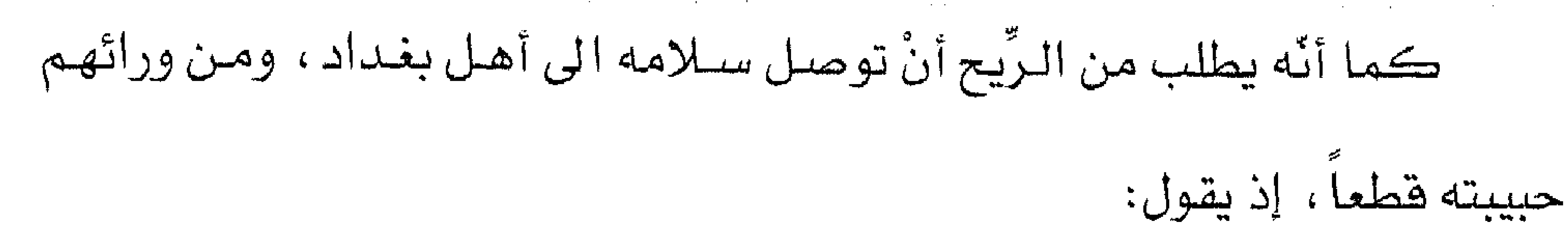
وهكذا كان بعض الشعراء العباسيين يتوالون في ذكر حبّهم لبغداد وأشتياقهم لها، بسبب وجود معشوقاتهم فيها كما رأينا، ولم تبتعد نظرة الوزير المهلبي عن نظرات مَنْ سبقه من الشعراء، فقد أبان عن حنينه الى بغداد وشوقه بسبب الحبيبة التي تسكنها، حين قال:

أحــنُّ الى بغـــدادَ شـــوقاً وإنّمــا أحــنُّ الى إلــفٍ بهــا لــي شـــائق
مُقيمٌ بـأرضٍ غبـتُ عنهـا وبِدْعَـةٌ إقامـة معشـوقٍ ورحلـة عاشـق [33]

كان حبُّ العباس بن الأحنف العفيف يدعوه في كثير من الأحيان الى الاستعانة بمظاهر الطبيعة والافادة منها في نقل مشاعره وآلامه وسلامه الى حبيبته، ومن ذلك أفادته من شمس بغداد، إذ أعرب عن عشقه وغرامه اللذين أوصلاه الى درجة غريبة من الهيام، وذلك حين يخاطبها قائلاً لها:

يـــاشمسَ بغـــدادَ إنّـــي دَنِـــفُ إذ مـاتَ منـكِ الـودادُ واللُّطْـفُ [34]





كما أنّه يطلب من الرِّيح أنْ توصل سلامه الى أهل بغداد، ومن ورائهم حبيبته قطعاً، إذ يقول:

بلِّغِـــي يـــاريحُ عَنَّـــا أهـــلَ بغـــدادَ السَّـــلاما [35]

وإذا كان العباس بن الأحنف يستثمر مظاهر الطبيعة في نقل مشاعره الى حبيبته، وابلاغ سلامه لها في بغداد، فان ابن المعتز كان يستثمرها لهدف آخر غير ذلك الهدف، فهو حين يصف الثلج الذي سقط في بغداد، يتخذ منه مسوِّغاً لشرب الخمرة في ذلك اليوم، ويدعو اللائمين الى عذره، لأنّ الجوّ — من وجهة نظره- يساعد على الشرب، إذ نزل الثلج باكراً واختفت الشمس في النهار، بسبب كثرة الغيوم، وسقطت الامطار مع الثلوج التي بدت وكأنّها ورد أبيض نُثِرَ على نواحي الأرض في بغداد، فيقول:

مَنْ لَامَني اليومَ في سُكْرٍ فلا — هاتِ الكبيرَ وغيري فاسقِ ما
غَدَتْ مُبَكِّرَةً للمُزْنِ فاحتَجَبَتْ — شمسُ النهارِ ولم تَعْرِفْ لها خَبَرا
حتّى إذا أثقلَتْ حَمْلاً وما بَقِيَتْ — أرضٌ ببغدادَ إلّا ترتجي مَطَرا
واغرورقَتْ لِانسكابِ الماءِ مُقلتُها — جاءتْ بثلجٍ كوردٍ أبيضٍ نُثِرا [36]

بغداد موطن الممدوح:

وغدت بغداد جسراً لدى بعض الشعراء المتكسبين، ينتقلون من خلاله لمدح ممدوحيهم، وأكثر مَنْ لجأ الى الأسلوب هذا هو البحتري، فقد أفاد من

بغداد في توجيه بعض المدائح التي لم تخلُ حتماً من المبالغة، غير أنّها كانت تجعل الممدوح مسروراً، فلولا ذلك لما لجأ الشعراء الى ذلك الاسلوب في المديح.

إنّ بغداد ترتدي أفضل ما لديها من الثياب حين يعود اليها الخليفة المتوكل بعد إقامته في دمشق لمدة من الزمن، وهي في الوقت نفسه تتشرف برجوعه اليها:

وقدْ لَبِسَتْ بَغْدَادُ أحسَنَ زِيِّها   لإقْبالِهِ، واسْتَشْرَفَتْ لِعُدُولِهِ [37]

وتُضاءُ بغداد بالممدوح بعد ظلامها، فيعود وقت المساء فيها ضحًى، وكذلك وقت الأصيل، في دلالة لازدهارها وزهوها بذلك الممدوح الذي أكسبها نوراً بوجوده فيها:

وأبيضُ مِنْ آلِ الحُسَينِ تَرُدُّهُ   الى المَجْدِ أعْراقٌ مُهَدًّى دليلُها

أضاءَتْ له بغدادُ بعدَ ظلامِها   فعادَ ضُحًى إمْساؤُها وأصيلُها [38]

وبوجود الممدوح في بغداد، يصيبها الغيث الذي تزدهر به البلاد، فلولا الممدوح لما نزل ذلك الغيث ولا ازدهرت به بغداد، وذلك كلّه مبالغة من الشاعر لاضفاء الصفات الايجابية على ممدوحيه، يقول:

أُعيرَتْ به بغدادُ سَكْبَ غَمامَةٍ   تَعُلُّ البلادُ مِن نَداها وتَنْهَلُ [39]

لذا فان بغداد، نتيجة لذلك الغيث، تخصب بالممدوح بعد اصابتها بالجدب، فينالها الرخاء، والسبب في ذلك كله طبعاً هو الممدوح من وجهة نظر الشاعر:



خَصِبَتْ بـه بغـدادُ بعـدَ جُدُوبِها	وتَلَبَّسَـتْ منـهُ ثِيـابَ رَخـاءِ (40)

إذن، كـان مـا مضـى الكـلام عليـه يتعلـق بالافـادة مـن بغـداد في توجيـه بعض المدائح مـن لـدن بعض الشعراء المتكسبين كمـا قلنـا، والـذين لم تخـلُ مدائحهم من المبالغة غير المحبّذة في جعل الممدوح سبباً مباشراً في كل ما هـو ايجابي في بغداد.

شعر المزاح:

وقـد يـرد ذكـر بغـداد مـن لـدن بعـض الشـعراء علـى سـبيل المـزاح، ولـيس الكـلام الجـاد، فأسـامة بـن منقـذ مـثلاً كـان متوجّهـاً الى مكـة لاداء فريضـة الحج، فمرَّ ببغداد في طريقه إليها، فسمع عن جمالها وأنّها من أفضل البلدان، وتتمـاز بكـرم أهلـها، فضـلاً عـن الوجـوه الحسـنة لنسـائها، فـنظم في ذلـك مقطوعة ظريفة، صوّر فيها كلّ ما سمعه فيها على سبيل الطرفة، ذاكـراً أنّـه لم يرَ فيها سوى امرأة عجوز اسمها (أمّ ظلوم)، ولم يَرَ الصبايا اللواتي سمع عن جمـالهنّ، بسـبب انشـغاله بـالحجّ عنهنّ، فضـلاً عـن سنّه الـذي بلـغ السـبعين، فأشار في مقطوعته الى أنه تحدّث بالسمع من دون المشاهدة، قائلاً:

وَصَفُوا لـي بغـدادَ حينـاً، فلمّـا	جِئتُهـا، جئـتُ أحسـنَ البُلـدانِ
منظـرٌ مـبهِجٌ، وقـومٌ سَـراةٌ	قـد تَحَلَّـوا بالحُسـنِ والإحسـانِ
لـيس فـيهم عيبـاً أنَّ في كلْـ	ـلِ بنـانٍ علّاقَـةَ الميـزانِ
وسمِعْنـا، ومـا رأينـا سِـوَى أمْـ	ـمِ ظلـومٍ فيهـا مِـنَ النِّسـوانِ

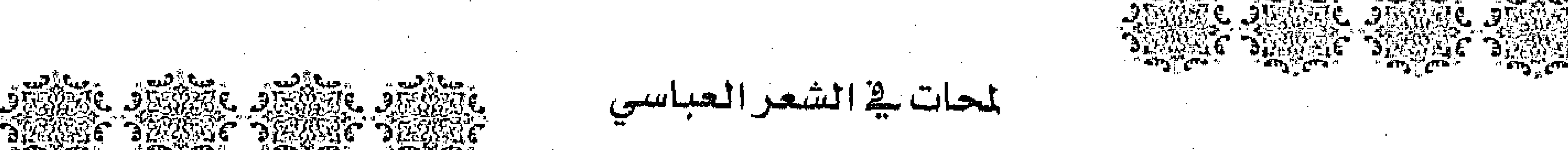
وهـي جنّيَـةٌ كـأقبحِ مـا شـوْ ... وَهَـهُ رَبُّنـا مِـنَ الغِـيلانِ
إنَّ فيهـا مِـنَ الصَّبايا شُموسـاً ... في غُصُـونٍ تهتـزُّ في كُثبـانِ
شَغَلَتْنا السَّبْعُونَ والحَـجُّ عنهنْـ ... نَ، فقلنـا بالسَّمعِ دُونَ العَيـانِ (41)

هجاء بغداد وساكنيها:

غير أنّ بغداد لم تكن تعجب بعض الشعراء في بعض الأحيان، ولاسيما بعد الخراب الذي نالها أثناء الحرب التي دارت فيها بين الأخوين الأمين والمأمون، لذا نرى أبا تمام مصوّراً دمارها ذلك ومفضّلاً عليها سامراء، فالنار التي احترقت بها بغداد ودمّرت محاسنها جعلتها تغدو مثل العجوز التي ذهب شبابها وودّعها دون رجعة في نظر أبي تمام، إذ لا أمل في إصلاح ما تخرّب منها، ولهذا السبب فضّل الشاعر سامراء عليها، وذلك حين قال:

لقـد أقـامَ علـى بغـداد ناعيهـا ... فَلْيَبْكِها لخَرابِ الدَّهْرِ باكيهـا
كانـت علـى مـا بهـا والحَـرْبُ ... والنّـارُ تُطفِـئُ حُسْـناً في نَوَاحيهـا
تُرْجَى لها عَودَةٌ في الدَّهْرِ صالِحة ... فالآنَ أضْمَرَ منها اليأسَ رَاجيها
مِثْلَ العَجُوزِ التي وَلَّتْ شَبيْبَتُها ... وبانَ عنها كمالٌ كان يُحظِيها
لَـزّتْ بها ضَـرَّةٌ زَهْـرَاءُ واضِـحَةٌ ... كالشّمسِ أحسنُ منها عندَ رائيها

وللحسين بن الضحّاك مقطوعة شعرية يفضل فيها سامراء على بغداد أيضاً، وكان تفضيله نابعاً من دوافع عدّة، كان أبرزها حدائقها الجميلة التي



تزدهر بأنواع الورد المختلفة، فضلاً عن الأمور الأُخر التي ذكرها في مقطوعته هذه:

سُــرَّ مَــنْ رَا أسَــرُّ مِــنْ بغــدادِ … فَالْـهُ عـن بعـضِ ذكْرِهـا المُعتـادِ

حَبَّـذا مَسْـرَحٌ لهـا لـيس يخلـو … أبـداً مـن طريـدةٍ وطِـرادِ

وريـاضٌ كأنّمـا نَشَـرَ الزَّهْـ … ـرُ عليهـا مُحَبَّـرَ الأبـرادِ

واذكُـر المُشْـرِفَ المُطِـلَّ من الثـ … ـلِّ علـى الصـادرين والـوُرّادِ

وإذا رَوَّحَ الرِّعـاءُ فـلا تَنْـ … ـسَ رَوَاعـي فَراقِـدِ الأولادِ(43)

كما أنّ له مقطوعة أخرى في المضمون نفسه، وأعني في تفضيل سامراء على بغداد، وفيها يجعل بغداد فداء لسامراء، إلّا أنّ السبب لم يكن مدعاة لنظم قوله هذا في هجاء بغداد بالمستوى الذي صوّره فيها، إذ لم يكن سوى سبب شخصي، ألَا وهو حرارة جَوِّها التي لم يستطع الشاعر تحمّلها، فذلك واضح في قوله:

على (سُرَّ مَنْ رَا) والمصيفِ تحيَّةٌ … مُجلَّلَـةٌ مـن مُغْـرَمٍ بهواهُمـا

ألَـا هـل لمشـتاقٍ ببغـدادَ رجعـةٌ … تُقَـرِّبُ مـن ظِلَّيهِمـا وذَراهُمـا

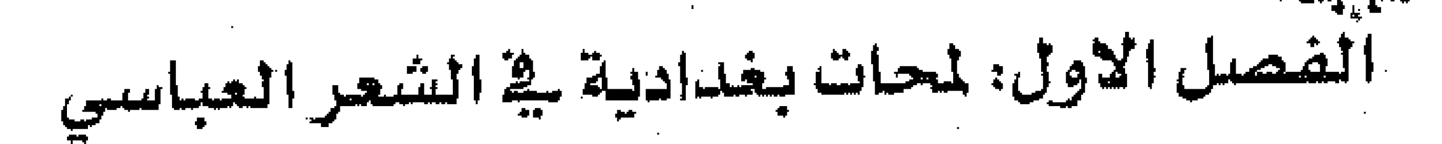
مَحَلّـانِ لَقّـى اللّـهُ خـير عبـادِهِ … عزيمـةَ رُشْـدٍ فيهمـا فاصْطَفاهُما

وقـولا لبغـدادٍ إذا مـا تنسَّـمَتْ … علـى أهـلِ بغـدادٍ جُعِلْـتِ فِـداهُما

أفي بعضِ يومٍ شَفَّ عينيَ بالقـذا … حَرُورُكِ حتّى رابني ناظِراهُمـا(44)

وإذا كان أبو تمام والحسين بن الضحّاك فضّلا سامراء على بغداد في نصوصهما السابقة لأسباب ساذجة لم تكن بغداد مسؤولة عنها، فإن بعض



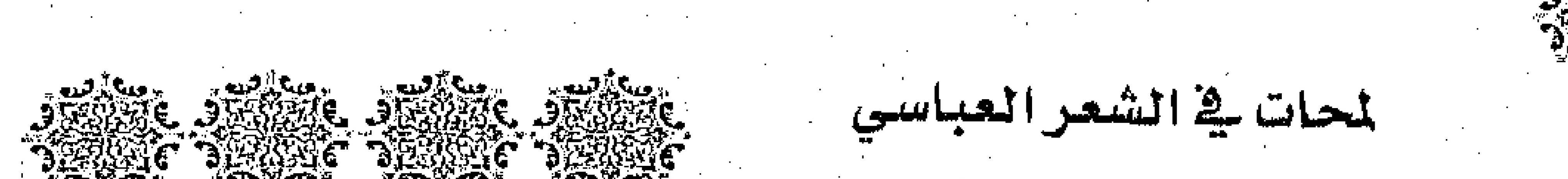


الشعراء العباسيين نالوا منها بشدّة، وذلك من خلال هجائها هجاءً تتراوح حدّته من شاعر الى آخر، فيحيى بن زياد الحارثي أبان عن رغبته عنها حين جاورها، وأعرب عن بغضه لها بنواحيها كافة، حتّى أنّه لم يتوافق مع أي شخص فيها، يقول:

لقد جاوَرْتُ بغداذا	فما أحبَبْتُ بغداذا
ولا أحببتُ كَرْخايا	ولا أحببتُ كَلْواذى
ولا وافَقَنِي فيها	أخي ذاكَ ولا هذا [45]

أمّا مطيع بن إياس، فقد كان ذمه لبغداد ينبع أصلاً من شدّة فقره وسوء حاله، ولاسيما حين حلَّ بغداد، فلمّا نزلها ازداد شرًّا وعسراً حسب قوله، وفضلاً عن ذلك فانه يرى أنّ بغداد تعصف بالتراب على أهلها كالمطر الغزير، وهو يعتقد بأنّ اللّه تعالى سيدمّرها عاجلاً كما دمَّرَ سابقاتها من المدن عقوبة لأهلها:

حبّذا عَيشُنا الذي زالَ عَنَّا	حبّذا ذاك حين لاحبّذا ذا
أين هذا من ذاك؟ سَقْياً لهذا	ك ولسنا نقولُ سَقْياً لهذا
زادَ هذا الزّمانُ شرًّا وعُسرًا	عندنا إذْ أحَلَّنَا بغداذا
بَلْدَةٌ تُمْطِرُ الترابَ على القو	مِ كما تُمْطِرُ الشّمالُ الرَّذاذا
وإذا ما أعاذَ رَبِّي بلادًا	من خرابٍ كبعضِ ما قد أعاذا
خَرِبَتْ عاجِلاً كما خَرَّبَ اللـ	ـهُ بأعْمالِ أهْلِها كَلْوَاذى [46]



ويرى ابن المعتز أنه لافائدة تُرتجى من إقامته ببغداد ، وذلك من خلال تشبيهه لاقامته فيها بالعنين الذي تعانقه عجوز، في دلالة مؤكدة على يأسه وفقده لأي أمل فيها ، إذ طال همّه حين أقام فيها ، وفي الوقت الذي يرى فيه الشاعر أنّ أيّ مسافر قد يشقى في سفره أو يفوز ، فانه لايرى فوزاً أبداً من نزوله بغداد ، وذلك واضح في بيتيه اللذين يقول فيهما :

أطال الدَّهرُ في بغدادَ هَمّي ... وقد يَشقى المسافِرُ أو يَفوزُ
ظَلَلتُ بها على كُرهِي مُقيماً ... كعِنّينٍ تُعانقُهُ عجوزُ(47)

ووصل الأمر ببعض الشعراء العباسيين الى عدم الاقتصار على هجاء بغداد فحسب، وإنّما الى هجاء أهلها ، ويبدو أنهم كانوا ينطلقون من مواقف شخصية لايمكن تعميمها على أهل بغداد جميعهم، فأبو الشمقمق لايجد شخصاً في بغداد يتحلّى بالمروءة، فضلاً عن أنّ وجهاءها يريدون المديح بلا ثمن أو جائزة، ولعلّه كان يقصد بذلك الخلفاء العباسيين، قائلاً :

ليسَ فيها مروّةٌ لِشَريفٍ ... غيرَ هذا القِناعِ بالطَّيْلَسانِ
وبقينا في عُصْبَةٍ مِن قُرَيشٍ ... يَشْتَهُونَ المديحَ بالمجّانِ(48)

وأكّدَ الشاعر عُمارة بن عقيل بخل الممدوحين في بغداد وأنهم ليسوا أهلاً للمديح، لأنّهم لايتمكنون من اكرام الشعراء بما يتناسب وقيمة قصائدهم فيهم، لذا فهو ينصح الآخرين بالرّحيل عن بغداد ، لأن الذي يبقى فيها لن ينال طائلاً من أهلها ، فالأموال فيها لا تُغدَقُ من الملوك إلّا على أهلها

كما يرى، لذا فانه لايستغرب إصابة يد الكرم فيها بالشلل ؛ لأنّ أصحاب الأموال فيها على النحو ذاك، وذلك كلّه ذكره الشاعر في مقطوعة تفوح منها رائحة اليأس، فضلاً عن الفشل الذي شعر به ناظمها من إقامته في بغداد، يقول:

تَرَحَّلْ، فما بغداد دار إقامةٍ	وما عند مَن أضحى ببغداد طائل
محلّ ملوكٍ سمنهم في أديمهم	وكلّهم عن حلية المجد عاطل
فلا غرو إنْ شلّت يد المجد والعلى	وقلّ سماح من رجال ونائل
إذا غضغض البحر الغطامط ماؤه	فليس عظيماً أنْ تغيظ الجداول

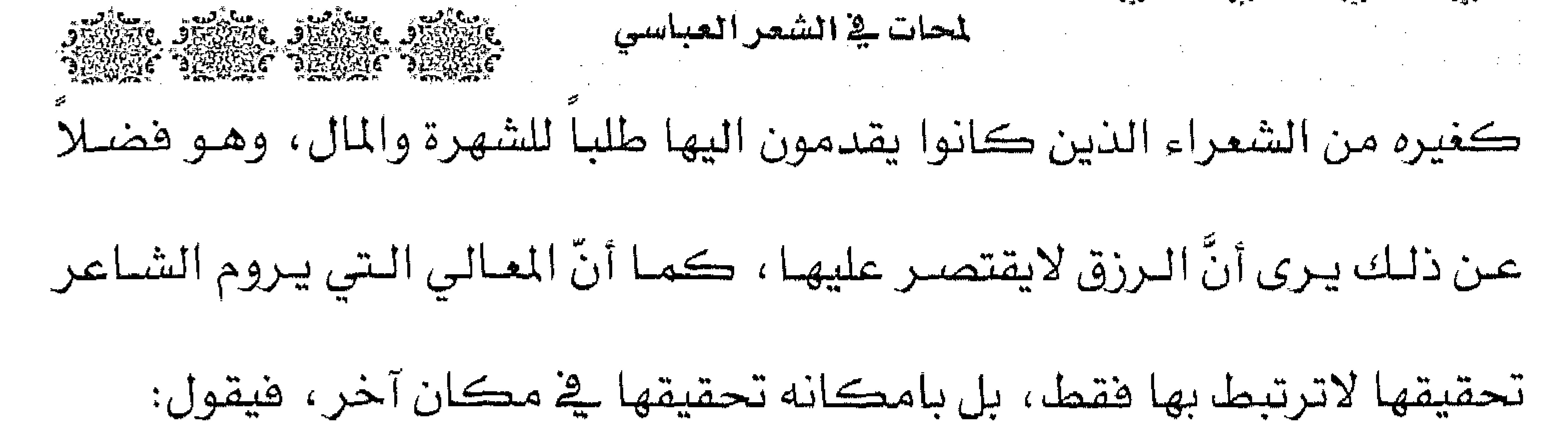
وكان بعض الشعراء يدعون الآخرين الى البحث عن الناس الأشراف في بغداد، قاصدين من وراء ذلك الى خلوّها منهم، فقد غدا خيرُ بغداد شرًّا لدى أحدهم، فلا يرى فيها حرًّا ولا حرَّة في قوله:

بغدادُ قد صار خيرُها شَرًّا	صَيَّرَها اللّهُ مثل سامَرّا
اطلبْ وفَتِّشْ واحرصْ فَلَسْتَ تَرَى	في أهلِها حُرَّةً ولا حُرّا[50]

ولا يحتاج الباحث الى دليل لاثبات حجم المبالغة في هجاء أهل بغداد في البيتين السابقين، وربما يكون الشاعر متألماً من موقف شخصي سلبي من لدن بعض الذين احتكّ بهم في بغداد وتعامل معهم، فعمَّمَ تجربته على أهلها جميعاً، وذلك بفعل العامل النفسي المتأزّم لديه.

وهذا ما حصل فعلاً مع الشريف الرضي، حين استفهم مستنكراً عن عدم رحيله من بغداد التي يكثر فيها حسّاده، علماً أنّه ابن بغداد، وليس





كغيره من الشعراء الذين كانوا يقدمون اليها طلباً للشهرة والمال، وهو فضلاً عن ذلك يرى أنَّ الرزق لايقتصر عليها، كما أنّ المعالي التي يروم الشاعر تحقيقها لاترتبط بها فقط، بل بامكانه تحقيقها في مكان آخر، فيقول:

مالي لا أرغبُ عن بَلْدَةٍ ... تَرْغَبُ في كَثْرَةِ حُسّادِي

ما الرِّزْقُ بالكَرْخِ مُقيمٌ، ولا ... طَوْقُ العُلى [كذا] في جيدِ

رثاء بغداد:

وكانت الفتنة التي أصابت بغداد في زمن الأمين والمأمون، والدمار الذي لحقها نتيجة لذلك، محطّ اهتمام من الشعراء، ولاسيما (الخريمي) الذي كتب قصيدة تبلغ مائة وخمسة وثلاثين بيتاً، تحدّث فيها عن ماضي بغداد وما آلت اليه بعد الفتنة [52]، وبيَّنَ فيها جمال بغداد قبل النزاع الذي دار بين الأخوين، مشبِّهاً إيّاها بالعروس، فضلاً عن وصفها بجنة الخلد، وذلك في قوله:

قالوا: ولم يلعبِ الزمانُ بـ (بغـ ... ـداد) وتعثُرْ بها عواثرُها

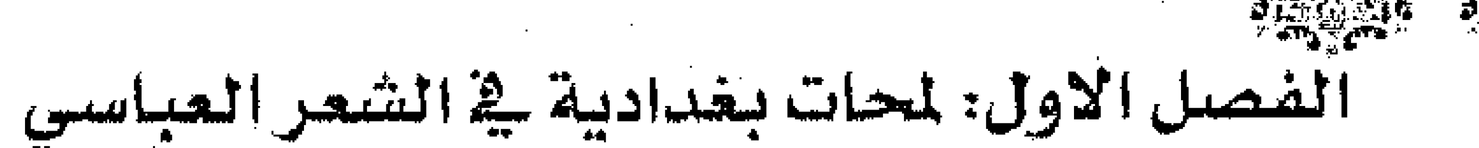
إذ هي مثل العروسِ، باطنُها ... مشوّق للفتى وظاهرها

جنّة خلدٍ ودارُ مَغْبَطَةٍ ... قلّ من النائبات واترها

دَرَّتْ خُلوقُ الدنيا لساكنها ... وقلّ معسورها وعاسرها

وانفرجت بالنعيم وانتجعت ... فيها بلذّاتها حواضرها

فالقومُ منها في روضةٍ أُنفٍ ... أشرق غِبَّ القطار زاهرها



مَـنْ غـرَّهُ العـيشُ في بُلَهْنيـةٍ ... لَـوَانَّ دنيـا يـدومُ عامرهـا

دارُ ملـوكٍ رَسَـتْ قواعـدها ... فيهـا، وقـرَّتْ بهـا منابرهـا

أهل العُلا والندى [كذا] وأندية ... فخـرِ إذا عـددتْ مفاخرهـا

أفـراخُ نعمـى في ارث مملكـةٍ ... شـدّ عراهـا لهـا أكابرهـا[53]

ثمّ يتكلم الشاعر بعد مديحه بغداد على الفتنة التي نالتها كلاماً طويلاً، فيرى أنّ أهلها تفرّقوا شِيَعاً وتقطّعت أواصرهم، قائلاً:

فلـم يـزل، والزمـانُ ذو غِيَـرٍ ... يقـدحُ في ملكهـا أصـاغرها

حتّـى تسـاقت كأسـاً مثمّلـةً ... مـن فتنـةٍ لايُقـال عاثرهـا

وافترقـت بعـد أُلفـةٍ شِـيعاً ... مقطوعـةً بينهمـا أواصـرها[54]

ويتذكر ما كانت عليه بغداد قبل تلك المعركة، من الازدهار والعمران والقصور الجميلة والأحياء العامرة، ويبكي ذلك كله بدموع غزار، ثم يرى أنّ تلك الفتنة كانت عقاباً لأهل بغداد لأنهم ابتعدوا عن قيم الدين الحقيقية، فأذاقهم الله تعالى لباس الخوف، وأوقع فيهم الحريق:

يـابؤسَ بغـداد دار مملكـة ... دارت علـى أهلـها دوائرهـا

أمهلـها اللّـهُ ثـمّ عاقبهـا ... لّمـا أحاطـت بهـا كبائرهـا

بالخسف والقذف والحريق وبالـ ... ـحرب التي أصبحت تساورها

كم قد رأينا من المعاصي ببغدا ... دَ، فهـل ذو الجـلالِ غافرهـا

حلّـتْ ببغـدادَ وهـي آمنـةٌ ... داهيـةٌ لم تكـن تحاذرهـا

طالعهـا السـوءُ مـن مطالعـه ... وأدركـت أهلَهـا جرائرهـا

رَقَّ بها الدينُ واستخِفّ بذي الـ ... ـفضل، وعـزّ النسّـاكَ فاجرهـا

وخطَّـم العبــدُ أنــفَ سَـيِّدِهِ بــالرغم، واســتُعبِدَتْ حرائرهــا

وصــارَ ربُّ الجـيرانِ فاسـقُهم وابتــزَّ أمــرَ الـدروب ذاعرهــا[55]

ويسترسل الشاعر في الحديث عن مجريات الأحداث التي أصابت بغداد في اثناء الحرب الدائرة فيها الى أنْ يتوصّل الى مدح الخليفة المأمون في نهاية قصيدته الطويلة[56].

ولم يستطع بعض الشعراء تمالك أنفسهم، وكفكفة دموعهم في اثناء الحديث عن بغداد وما جرى فيها من الحرق والنهب والقتل، فكلّما تذكّروا ذلك انهمرت دموعهم، ومن أولئك الشعراء (العطوي)، الذي يتساءل بحزن عميق عمّا جرى لبغداد، موجِّهاًالسؤال لها عن الذي أصابها بالحسد، وأوصلها الى النتيجة المؤلمة هذه، بعد أنْ كانت قرّة العين، قائلاً:

مَـنْ ذا أصـابكِ يابغـداد بـالعين أَلَـمْ تكـوني زمانـاً قـرّة العـينِ

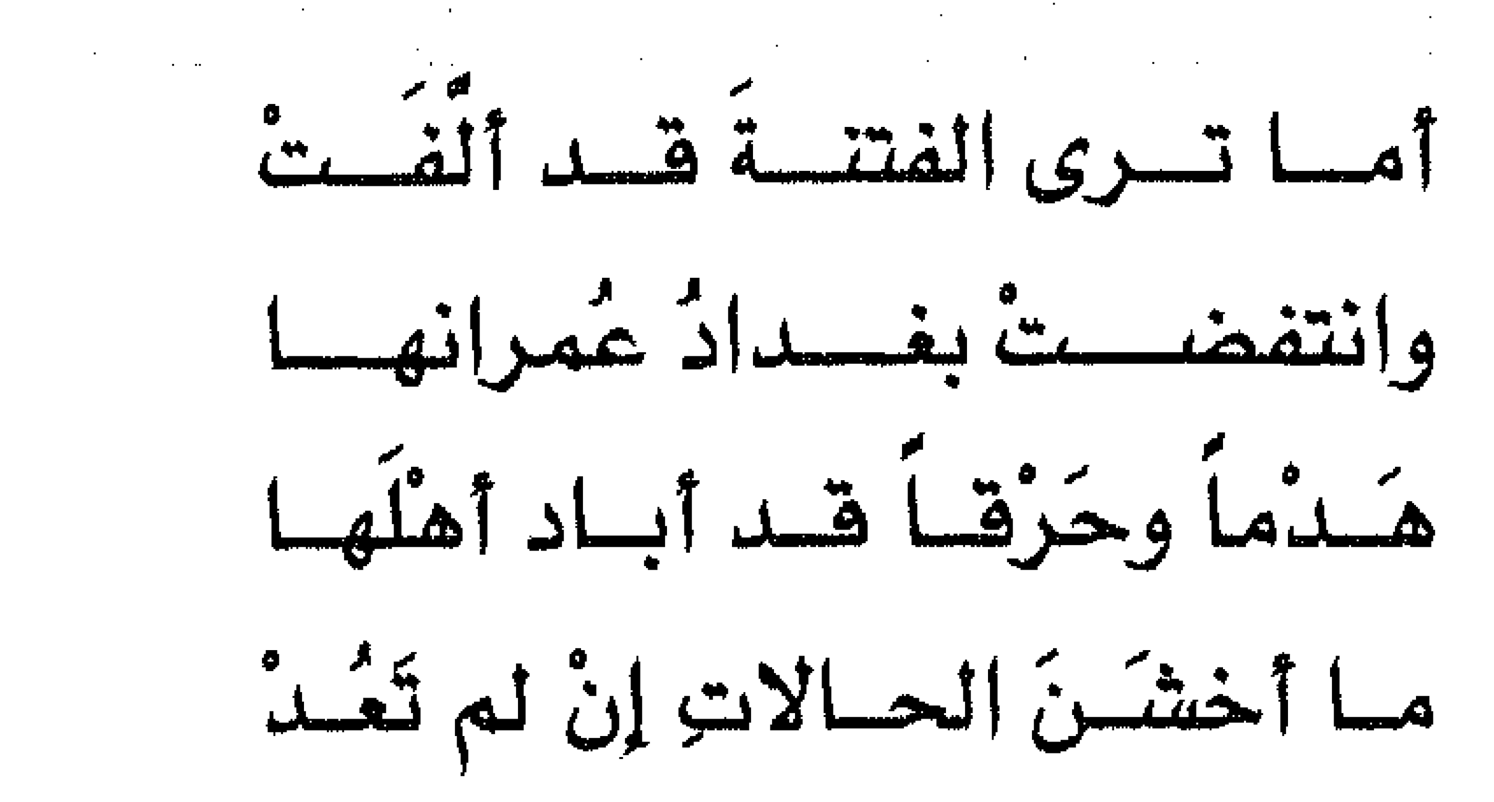
ألمْ يكــن فيــكِ قــوم كــان وكــان قــربهم زينــاً مِــنَ الــزينِ

استودع اللّهُ قوماً مـا ذكـرتهم إلّـا ترقـرق مـاء العـين مـن عـيني

كـانوا ففـرّقهم دهـرٌ وصـدعهم والدهرُ يصدع ما بين الفريقين[57]

وعندما دارت رحى الحرب في بغداد بين جيوش الأمين وجيوش المأمون، نظم الحسين بن الضحّاك مقطوعة وصف فيها الخراب الذي أصاب بغداد، فضلاً عن الوحشة التي أصبحت فيها بسبب حصارها، ورأى أنّ الهدم لمبانيها، والحرق الذي أباد أهلها كان عقوبة لهم، يقول:

أتُسْـــرِعُ الرحلـــة إغـــذاذا عـــن جـــانبَيْ بغـــداذَ أم مـــاذا



أمـا تـرى الفتنـةَ قـد ألَّفَـتْ ... الى أُولـي الفتنـةِ شُـذَّ اذا

وانتفضـتْ بغـدادُ عُمرانهـا ... عـن رأي لاذاكَ ولا هـذا

هَـدْماً وحَرْقـاً قـد أبـاد أهْلَهـا ... عقوبـةٌ لاذَتْ بمَـنْ لاذا

مـا أخشَـنَ الحـالاتِ إنْ لم تَعُـدْ ... بغـدادُ في القُلَّـةِ بغـداذا[58]

وفي الختام لابدّ لنا من القول إنّنا حاولنا في البحث المتواضع هذا اعطاء صورة واضحة عن رؤية بغداد من لدن الشعراء العباسيين، وكيف تعاملوا معها من مختلف الجوانب، مدحاً أو هجاءً، إعجابا أو ذمًّا، كما حاولنا رصد الأسباب التي دعت الشعراء للرغبة فيها، أو للرغبة عنها، فضلاً عن الوقوف على ما قيل بخصوص الفتنة التي حلّت بها في زمن الأخوين الأمين والمأمون.



الهوامش

1. تاريخ بغداد أو مدينة السلام 1/ 69، وينظر : 1/ 33.

2. أبو بكر الصولي حياته وأدبه – ديوانه / 466.

3. شعر السلامي / 83.

4. ديوان مهيار الديلمي 1/ 110.

5. مطيع بن إياس وما تبقى من شعره/ 37.

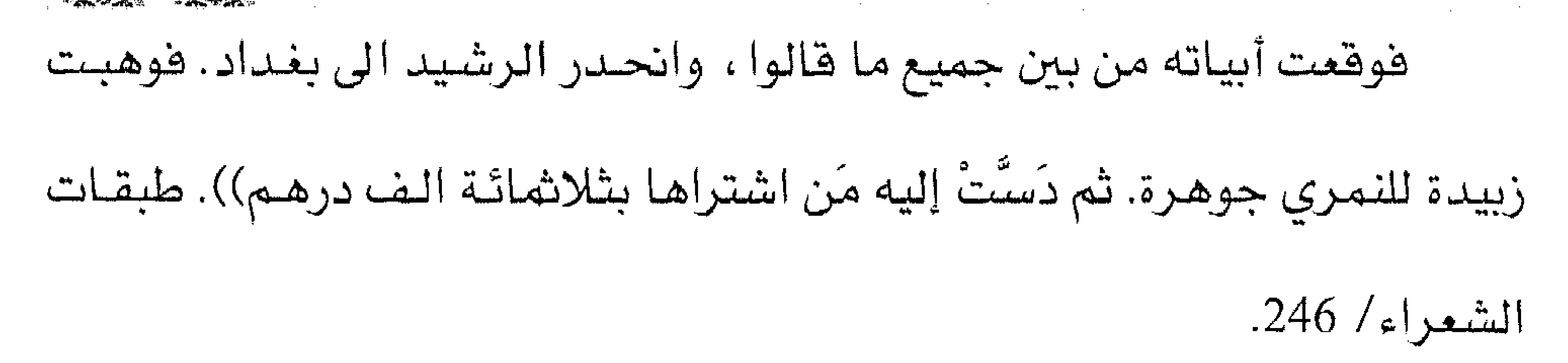
6. شعر الحسين بن مطير الأسدي / 50، نطورها: نقربها.

7. ديوان عُمارة بن عقيل / 97.

8. م. ن/ 107- 108، قطربل : قرية بين بغداد وعكبرا، ينسب اليها الخمر، الحراقة : سفينة خفيفة المر، ويعلو فقارتها: أي يرتفع على ظهرها. ونُسِبَت القصيدة الى الشاعر منصور النمري في قصّة مفادها ((أنّ الرشيد كان بالرَّقّة، وكان يستحسنها ويستطيبها، فيقيم بها، وأطال المقام بها مرّة، فقالت زبيدة للشعراء: مَنْ وصف مدينة السلام وطيبها في أبيات يُشَوِّق أمير المؤمنين إليها أغنيتُهُ. فقال في ذلك جماعة، منهم النمري قال أبياتاً أولها:

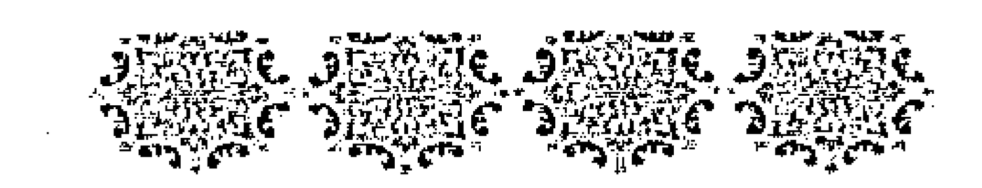
ماذا ببغداد من طيبِ أفانينِ ومن عجائب للدنيا وللدِّينِ

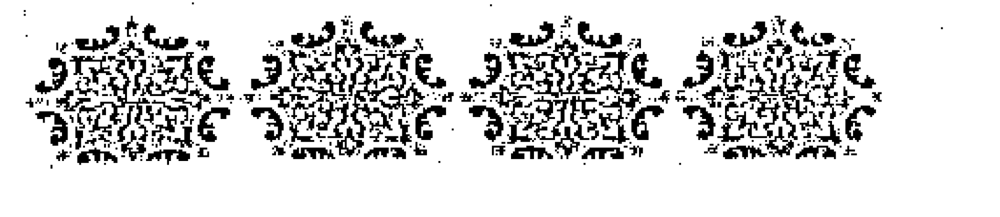
إذا الصَّبا نفحتْ والليل مُعتكر فحرَّشت بين أغصان الرياحينِ



فوقعت أبياته من بين جميع ما قالوا ، وانحدر الرشيد الى بغداد. فوهبت زبيدة للنمري جوهرة. ثم دَسَّتْ إليه مَن اشتراها بثلاثمائة الف درهم)). طبقات الشعراء/ 246.

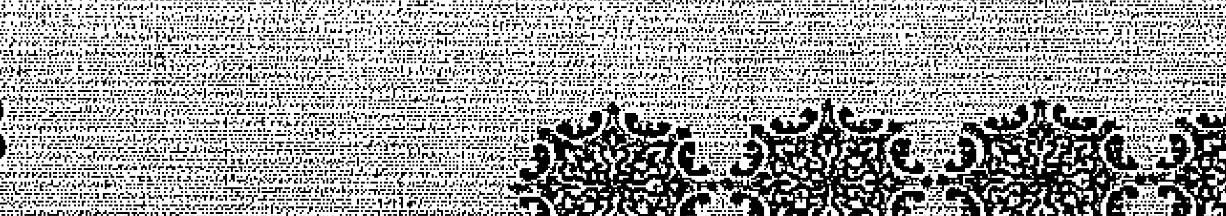
9. العطوي / 31-32.
10. ديوان ابن الرومي 766/2.
11. م. ن 6/ 2417.
12. شعر ابن الهبارية/ 110-111.
13. م.ن / 146-147/ الأنف: الجديد ، وروضة أنف: لم تُـرْعَ مـن قبـل، ووكف الماء: سال وقطر قليلاً قليلاً.
14. م.ن /160.
15. أشجع السلمي حياته وشعره / 267.
16. بكر بن النطاح / 250.
17. م.ن /263، أبشوق: الصواب: الشوق، أبو وائل: كنية الشاعر بكر بن النطاح.
18. م.ن/ 268.
19. ديوان اسحاق الموصلي / 116.





20. م.ن / 144 ، الجثجاث: نبت صيفي أخضر، زهوره صفراء ذات رائحة طيبة ، البسباس: نبت ذو رائحة طيبة وطعم كطعم الجزر.
21. ديوان ابن الرومي 789/2.
22. يحيى بن علي المنجم حياته وشعره/ 206.
23. م.ن / 212-213.
24. ديوان العباس بن الأحنف/ 34.
25. م.ن / 49.
26. أشجع السلمي حياته وشعره/ 267.
27. ديوان اسحاق الموصلي / 116.
28. مطيع بن إياس وما تبقى من شعره/ 68.
29. ديوان العباس بن الأحنف/ 144.
30. م. ن / 260.
31. أبو العتاهية أشعاره وأخباره/ 640.
32. ديوان أبي تمام 3/ 309.
33. شعر الوزير المهلبي/ 157.
34. ديوان العباس بن الأحنف / 188.







35. م. ن / 238.

36. شعر ابن المعتز 2/ 575.

37. ديوان البحتري 3/ 1634.

38. م.ن 3/ 1776.

39. م.ن 3/ 1794.

40. أبو بكر الصولي حياته وأدبه – ديوانه / 457.

41. ديوان أسامة بن منقذ / 161 ، أم ظلوم :عجوز كانت في الدار التي نزلها ببغداد قبيحة المنظر.

42. ديوان أبي تمام 4/ 438، لَزَّتْ : أي غدتْ سرَّ مَنْ رأى ملاصقة لها لاتدعها.

43. أشعار الخليع الحسين بن الضحّاك/ 42.

44. م.ن / 106-107 ، الذَّرى : فناء الدار ونواحيها وكلّ ما استترت به.

45. يحيى بن زياد الحارثي، حياته وشعره/ 63، كَرْخايا : نهركان ببغداد يأخذ من نهر عيسى تحت المحوّل حتى يمر ببراثا ، كلواذى : اسم مكان ببغداد ، ويقال إنّها التي تدعى اليوم الكرادة.

46. مطيع بن إياس وما تبقى من شعره/ 48.

47. شعر ابن المعتز 2 / 603.



48. أبو الشمقمق وما تبقى من شعره/ 150 – 151.

49. ديوان عُمارة بن عقيل / 101 ، غضغض: نقص.

50. ديوان الخالديَّين / 127.

51. ديوان الشريف الرضي 1/ 295.

52. ينظر الشعر في الحاضرة العباسية / 83-84.

53. ديوان الخريمي / 27-28.

54. م.ن / 28.

55. م.ن / 31، عزّ غلب.

56. تنظر القصيدة في ديوان الخريمي / 27-37.

57. العطوي / 65.

58. أشعار الخليع الحسين بن الضحّاك/ 51، القُلّة: أعلى كلّ شيء والجماعة من الناس.



المصادر والمراجع

- أبو بكر الصولي (255 – 336هـ) حياته وأدبه – ديوانه، الدكتور أحمد جمال العمري، طبع بمطابع دار المعارف- القاهرة، د.ت.
- أبو الشمقمق وما تبقى من شعره، ضمن: شعراء عباسيون، دراسات ونصوص شعرية، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها: الدكتور محمد يوسف نجم، راجعها: الدكتور احسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، مطبعة عيتاني، 1959.
- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، عُني بتحقيقها : الدكتور شكري فيصل، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تُنشَر من قبل، مطبعة جامعة دمشق، 1384 هـ - 1965م.
- أشجع السلمي حياته وشعره، الدكتور خليل بنيان الحسون، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1401 هـ - 1981م.
- أشعار الخليع الحسين بن الضحّاك، جمعها وحقّقَها: عبد الستار أحمد فرّاج، دار الثقافة – بيروت، طبع في دار مجلة شعر، بيروت – لبنان، 1960.

- بكر بن النطاح، ضمن : عشرة شعراء مقلّون، صنعة الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، 1411 هـ - 1990م.

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تأليف : الامام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى 463 هـ، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1417 هـ - 1997م.

- ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق: الدكتور حسين نصار، طبعة ثالثة منقحة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، 1424هـ - 2003م، شارك في تحقيق الجزء الثاني :د. سيدة حامد، د. محمد عادل خلف، زينب القوصي، منير المدني، وشارك في تحقيق الجزء السادس : وفاء محمود الأعصر، سيدة حامد عبد العال، منير محمد علي المدني.

- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، ج3، ط2، 1970، ج4، 1965.

- ديوان أسامة بن منقذ، حقّقه وقدّم له: الدكتور أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، د.ت.



- ديوان اسحاق الموصلي، جمعه وحقّقه : ماجد أحمد العزي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة الايمان- بغداد، ط1، 1970.

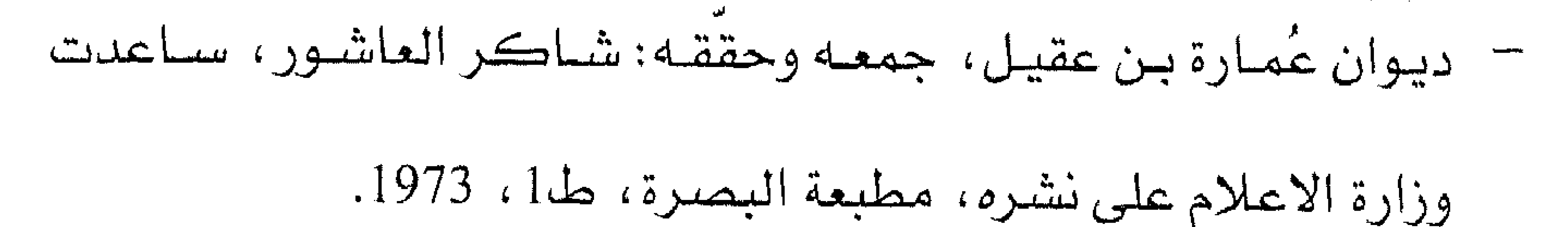
- ديوان البحتري، عني بتحقيقه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، 1965.

- ديوان الخالديَّيْن، أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابنَي هاشم الخالدي، جمعه وحقّقه : الدكتور سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، 1388هـ - 1969م.

- ديوان الخريمي، أبي يعقوب اسحاق بن حسان بن قوهي المتوفي سنة 214 هـ، جمعه وحقّقه: علي جواد الطاهر، محمد جبار المعيبد، دار الكتاب الجديد، بيروت- لبنان، مطابع الأمان، درعون – لبنان، ط1، 1971.

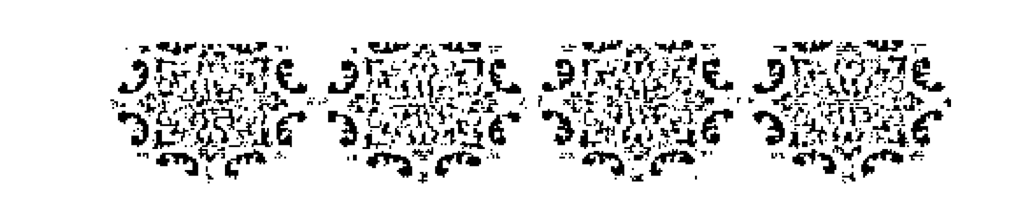
- ديوان الشريف الرضي، دار صادر – بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1380هـ - 1961م.

- ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، ط1، 1373هـ - 1954م.

- ديوان عُمارة بن عقيل، جمعه وحقّقه: شاكر العاشور، ساعدت وزارة الاعلام على نشره، مطبعة البصرة، ط1، 1973.
- ديوان مهيار الديلمي، منشورات الشريف الرضي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط1، 1344 هـ - 1925م.
- شعر ابن المعتز، صنعة: أبي بكر بن محمد بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد، 1398هـ - 1978م.
- شعر ابن الهبّارية، جمعه وحقّقه: الدكتور محمد فائز سنكري طرابيشي، تقديم: الدكتور محمد حمويّة، طبع في مطابع وزارة الثقافة، احياء التراث العربي، دمشق، 1997.
- شعر الحسين بن مطير الأسدي، جمعه وحقّقه : الدكتور محسن غياض، وزارة الاعلام، مديرية الثقافة العامة، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة- بغداد، 1391 هـ - 1971م.
- شعر السلامي، أبي الحسن محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي السلامي البغدادي، جمع وتحقيق: صبيح رديف، مطبعة الايمان – بغداد، ط1، 1391هـ - 1971م.

- الشعر في الحاضرة العباسية، الدكتورة وديعة طه نجم، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الصفاة- الكويت، ط1، 1977.
- شعر الوزير المهلبي، صنعة : جابر عبد الحميد الخاقاني، مجلة المورد، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الاعلام- الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد، م3، ع2، 1394هـ - 1974م.
- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق : عبد الستار أحمد فرّاج، دار المعارف، ط4، 1375هـ - 1956م [تاريخ مقدمة المحقق].
- العطوي، ضمن: شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري، دراسة ونصوص، العطوي، الجاحظ، الحمدوي، تأليف : محمد جبار المعيبد، مطبعة الارشاد – بغداد، 1977.
- مطيع بن إياس وما تبقى من شعره، ضمن: شعراء عباسيون، دراسات ونصوص شعرية، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها : الدكتور محمد يوسف نجم، راجعها: الدكتور إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، مطبعة عيتاني، 1959.



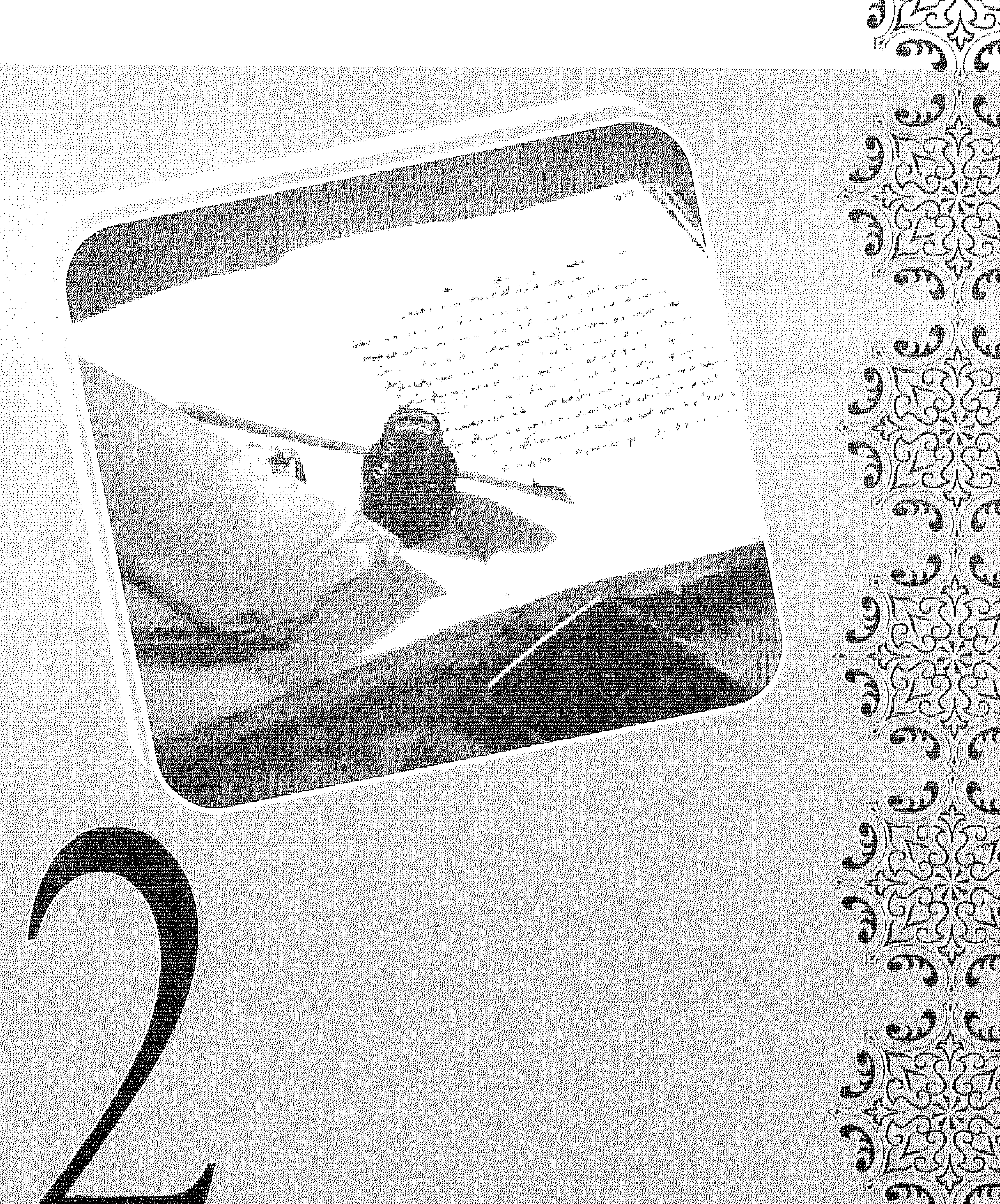
- يحيى بن زياد الحارثي، حياته وشعره، ضمن : شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، ج3، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1410 هـ - 1990م.

- يحيى بن علي المنجم، حياته وشعره، دراسة وتحقيق: هلال ناجي، ضمن: أربعة شعراء عباسيون، الدكتور نوري حمودي القيسي، الأستاذ هلال ناجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1994.

الفصل الثاني

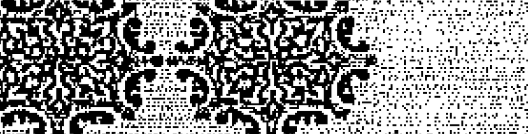
لمحات أسلوبية

في شعر الصاحب بن عَبّاد



2







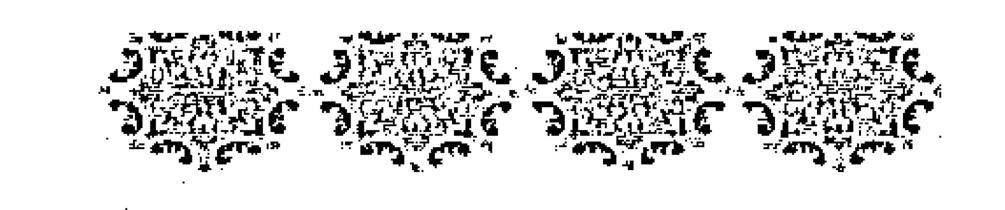

الفصل الثاني

لمحات أسلوبية في شعر الصاحب بن عَبَّاد

يعدّ الصاحب بن عبّاد (ت 385 هـ) واحداً من أبرز الشخصيات في العصر العباسي على مختلف الصُعُد، سواء السياسة منها أو الأدبية، أما على المستوى السياسي، فلاحتلاله منصب الوزارة في عهد الدولة البويهية، ولايخفى ما لهذا المنصب من أثر في الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك الوقت، وفيما يتعلق بالمستوى الأدبي، فلم يكن الصاحب مجرد شاعر فحسب، وانما كان ناثراً كبيراً، ورسائله تشهد له بذلك، ناهيك عن مؤلفاته المتنوعة، والتي ليس هنا مجال تفصيلها أو تعدادها، فضلاً عن الضجة الأدبية التي أحدثها جرّاء تأليفه الرسالة المعروفة (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي)، والتي تتبّع فيها عثرات أبي الطيب بحسب قوله، منطلقاً فيها من وجهة نظره في شعره، ومن المعروف أن المتنبي أبرز شعراء العصر، لذا اختلفت الآراء حول تلك الرسالة، ليس في ذلك العصر فحسب، وانما استمرَّ الاختلاف إلى عصرنا هذا.

وبحثنا يختص في مجال محدد لايحيد عنه، ألَا وهو شعر الصاحب بن عباد، إذ سنتناول فيه اللمحات التي ميّزته عمّن سواه من الشعراء العباسيين، فعند استقراء هذا الشعر تبيّن لنا أنّه اتصف بمميزات جعلت صاحبه يتفرد بها – في الأكثر – مما جعله ظاهرة شعرية فريدة في اسلوبها.





وتجدر الاشارة إلى ان بعض تلك اللمحات التي اتصف بها شعر الصاحب بن عباد، لم تكن حكراً عليه وحده، وانما كان يشترك فيها معه عدد آخر من الشعراء العباسيين، كالتكرار، والحوار مثلاً، غير أنَّ هناك لمحات أُخر كانت من سمات شعر الصاحب فقط، ولم يشترك معه فيها شعراء آخرون حسب علمنا، كالقصائد التي نظمها من دون حرف معين، والقصيدة التي نظمها حسب ترتيب الحروف الهجائية، وغير ذلك من اللمحات التي سنأتي على تفصيلها تباعاً في بحثنا هذا.

وربما يكون التكرار من أكبر تلك اللمحات التي ميّزت شعر الصاحب بن عباد، على الرغم من اشتراك عدد كبير من الشعراء في نهج التكرار في قصائدهم، ويبدو أنَّ تميّزه ذلك نابع – أصلاً – من كثرة تطرقه اليه إلى درجة جعلته ظاهرة أسلوبية وصفت شعره بها.

ويشكل التكرار بأنواعه وسيلة موسيقية لتنويع الأنغام، ومنه تكرار حرف في بيت، أو في أبيات القصيدة كلها، أو تكرار كلمة ما، ومجيء هذا النوع في الشعر يزيد من موسيقاه؛ وذلك لأن الأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان[1]، ويعدّ التكرار ظاهرة اسلوبية يتوصل بها إلى النضج الفني، كما يشكل رافداً من روافد النغم، ووسيلة معنوية- دلالة صوتية - نغمية[2].



لقد جاء التكرار في شعر الصاحب على وجهين، كان في الأول يكرر لفظة بعينها في القصيدة، وفي الثاني يكرر عبارة كاملة، أما التكرار اللفظي، فيؤدي إلى ابراز المعنى، وتقوية البناء العاطفي في القصيدة[3]، لذا فقد كان الشاعر كثيراً ما يكرر لفظة بعينها في كثير من أبيات قصائده، ومن المعروف أنَّ عملية التكرار لاتأتي مصادفة، وانما هي ((وليدة ضرورة لغوية أو مدلولية أو توازن صوتي))[4]، ولذلك وجد الباحث أنّ تكرار الألفاظ لدى الشاعر في قصائده كان كله في مدح الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فمن ذلك مثلاً تكراره لحرف الجر (في) مقروناً بهمزة الاستفهام في بداية سبعة أبيات من قصيدة تبلغ خمسة وعشرين بيتاً، وفي ذلك دلالة أكيدة على اهتمامه بابراز فضائل الامام علي (عليه السلام)، عن طريق هذا التكرار اللفظي المتضمن دلالة فضائل تلك الشخصية، ولاقناع المتلقي عن طريق هذا الاسلوب، يقول:

وفي أيِّ يومٍ لم يكن شمسَ يومِهِ ... اذا قيل: هـذا يـومُ تُقْضَى المآرِبُ

أفي خطبة الزهـراء لما استخصَّهُ ... كفاءًا [كذا] لها والكلُّ من قبلُ

أفي الطير لما قد دعا فأجابه ... وقـد ردَّهُ عنـي غبـيٌّ مـواربُ

أفي يوم خمٍّ اذ أشادَ بذكره ... وقد سمع الايصاءَ جاءٍ وذاهبُ

أفي رفعِهِ يوم التباهل قدرَهْ ... وذلك مجدٌ – ما علمت – مواظبُ

أفي ضمِّهِ يوم الكساءِ وقولِهِ: ... هُمُ أهلُ بيتي حين جبريل حاسبُ

أفي خصفِهِ للنعل لمّا أحلَّهُ ... بحيث تراءتْهُ النجومُ الثواقبُ



أفي القول نصًّا للزبير محذِّراً: تحاربُهُ بالظلم حين تحاربُ[5]

وهكذا استطاع الصاحب أن يعدد ايجابيات هذه الشخصية الفذة، عن طريق هذا التكرار بحرف الاستفهام وحرف الجر، ولاسيما اذا ما علمنا ((أنّ تكرار الحروف في بعض الأبيات، بشكل يلفت النظر يؤدي إلى تقوية النغم))[6].

ومن تكراره للألفاظ للغاية السابقة نفسها، تكراره للضميرين (أنت) و (أنا)، فأما الضمير (أنت)، فلمدح الامام علي (عليه السلام)، وأما الضمير (أنا)، فللدلالة على تأكيد حبه لهذا الامام، وتفديته له، والذود عنه ضد مَنْ لايعترف بحقه، أويحاول إنكار ماله من فضل، يقول:

أنتَ زوجُ الزهراءِ حوريَّةِ الانـ سِ وخير النساء عندَ امتيازِ
أنتَ يومَ الغدير صَدْرُ الموالي حينَ خَلَّفْتَهُمْ مع الأعجازِ

[....]

أنا أفدي ترابَ نَعلَيْكَ بالرو حِ وبالنفسِ دون بذلِ الركازِ
أنا حَرْبٌ لآلِ حَرْبٍ عليهم لعنةُ اللّهِ ما تجهَّزَ غازي
أنا مَنْ كافح النَّواصبَ عنكم بلسانٍ كالصارمِ الهَزْهازِ[7]

ويكرر الشاعر كلمة (اذكرا) تسع مرات في تسعة أبيات، وذلك في رَدِّه على العذولَين اللذين يعذلانه على حبه للامام علي (عليه السلام)، فيردّ عليهما مكرراً هذه اللفظة التي يحاول من خلالها تذكيرهما بفضائل هذه الشخصية فيما لوكانا قد نسياها، أو لم يسمعا بها، قائلاً:



ياعـــــــذوليَّ عليـــــــهِ	رمتُمـــــا منّـــي سفاهـــــا
اذكُـــــرا أفعـــال بـــــدرٍ	لســـتُ أبغـــي مــا سواهـــا
اذكـــــرا غــــزوةَ أُحْـــدٍ	انَّـــــهُ شمــــسُ ضحاهـــــا
اذكـــــرا حـــربَ حـــنينٍ	انّـــــهُ بــــدرُ دُجاهـــــا
اذكـــــرا الأحـــزاب تُعْلِـــمْ	انَّـــــهُ ليـــثُ شَراهـــــا
اذكـــــرا مهجـــــةَ عَمْـــرٍ	كيـــف أفنـــاها تِجاهـــــا
اذكـــــرا أمْـــرَ بـــــراءةٍ	واصـــدقاني مَـــنْ تلاهـــــا
اذكـــــرا مَـــنْ زُوِّجَ الزَّهـــ	ـــراءَ كيْمـــا يتبـــاهى
اذكـــــرا لـــي قُلَـــلَ العلـــ	ـــمِ ومَـــنْ حـــلَّ ذراهـــا[8]

وممّا لاشكَّ فيه انَّ تكرار لفظة معينة بهذا الكم، يؤدي إلى تعزيز الثقة لدى المتلقي (مستمعاً كان أو قارئاً)، وذلك من خلال الانفعال الذي يحدثه الايقاع الناتج من ذلك التكرار، إذ إنَّ لجرس اللفظة، ووقع تأليف أصوات حروفها وحركاتها على الأذن أثراً مهماً في اثارة الانفعال المناسب. فالايقاع الداخلي للألفاظ، والجو الموسيقي الذي يحدثه عند النطق بها، يُعدّ من أهم المنبهات المثيرة للانفعالات الخاصة المناسبة، كما أنَّ له ايحاءً نفسياً خاصاً لدى مخيلة المتلقي[9].

وبما أنَّ التكرار هو ارادة الابلاغ بحسب العناية بالأمور، والغرض منه ايضاح الكلام والاقناع والتوكيد[10]، وجدنا الصاحب كثيراً ما يحاول تكرار لفظة بعينها من أجل تأكيد فضائل الامام علي (عليه السلام)، ومن



تكراراته لتأكيد تلك الغاية، تكراره لاسم الاستفهام (مَنْ) في قصيدتين مختلفتين، يتحدث فيهما عن أثر هذه الشخصية في الاسلام، ومكانتها عند الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وذلك من خلال الاستفهام الانكاري المعروف، يقول في احداهما :

أرُواةَ آثارِ النبيِّ مَنِ الذي ... يُدْعى قسيمَ النارِ يوم الدينِ؟

مَنْ بابُه في العلمِ وهو مَدينةٌ ... ايهِ وصاحبُ سرِّهِ المخزونِ؟

مَنْ زُوِّجَ الزهراءَ حينَ تزاحموا ... في خطبةٍ كشفتْ عن المكنونِ؟

مَنْ جدَّ أصلَ الناكثين وجَدَّ حبْـ ... ـلَ القاسطينَ وحاط عزَّ الدينِ؟

مَنْ كان حَتْفَ المارقينَ القاسطيـ ... ـنَ وحَيْنَهُمْ في ذمَّة التحيينِ؟[11]

ويقول في القصيدة الثانية:

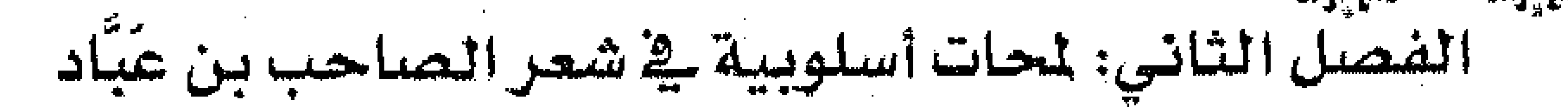
مَنْ كمولاي عليٍّ زاهدُ ... طلَّق الدنيا ثلاثاً ووفَى

مَنْ دُعي للطير إذْ يأكلُهُ ... ولنا في بعض هذا مُكْتَفَى

مَنْ وصيُّ المصطفى عندكمُ ... ووصيُّ المصطفى مَنْ يُصطفَى[12]

وهكذا كان الصاحب بن عباد في تكراره لبعض الألفاظ، يؤكد عظمة شخصية الامام علي (عليه السلام)، وذلك التكرار في مديحه ((تنويه به، واشارة بذكره، وتفخيم له في القلوب والاسماع))[13]، وبما أنّ التكرار هو ((تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً يقصده الناظم في شعره))[14]، لاحظنا تكرار الشاعر لكلمة (لكن) أربع



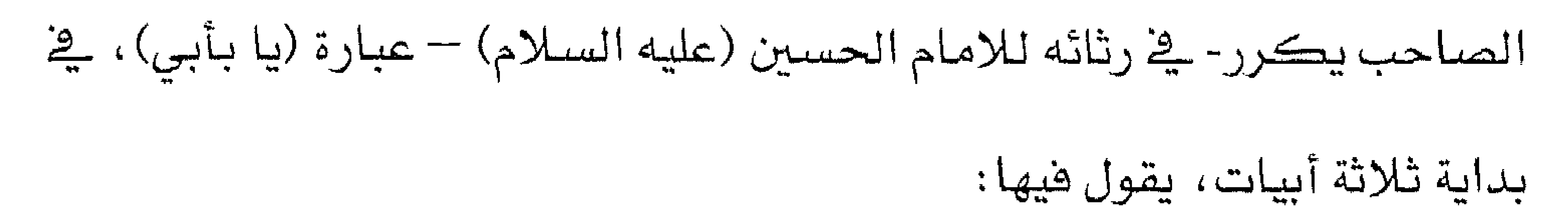


مرات في بيتين فقط في قصيدته التي تُعْرَف بالقصيدة اللاكنية، وذلك اثناء مدحه لـ (عضد الولة)، يقول فيهما:

أُشَبِّبُ (لكنْ) بالمعالي أُشَبِّبُ	وأنسبُ (لكنْ) بالمفاخر أنسبُ
ولي صبوةٌ (لكنْ) إلى حضرة العزِّ	وبي ظمأٌ (لكنْ) من العزِّ

ويبدو أَنَّ الغرض الرئيس من التكرار هو الخطابة، فيعمد الشاعر من خلاله إلى تقوية ناحية الانشاءأي ناحية العواطف، كالتعجب، والحنين، والاستغراب، وما إلى ذلك[16]، والتكرار في حقيقته الحاح على جهة مهمة في العبارة يُعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها، فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة[17]، ولذلك كان الصاحب في النوع الثاني من تكراراته يكرر عبارة كاملة في القصيدة، ولايقتصر على لفظة معينة كما في السابق، و ((كثيراً ما كان الشعراء يختارون عبارة يرددونها لتكون بمثابة ايقاع لبقية الأبيات))[18]، وهوفي تكراره لتلك العبارات، لم يخرج عن نطاق مدح الامام علي (عليه السلام) أيضاً، فتكراراته للعبارات جاءت كلها في مدح تلك الشخصية العظيمة والاستثنائية في تأريخنا الاسلامي والعربي، باستثناء قصيدة واحدة كانت في رثاء الامام الحسين بن علي (عليهما السلام)، ويرى ابن رشيق القيرواني أنَّ ((أولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء؛ لمكان الفجيعة وشدّة القرحة التي يجدها المتفجع))[19]، لذا نجد





الصاحب يكرر- في رثائه للامام الحسين (عليه السلام) – عبارة (يا بأبي)، في بداية ثلاثة أبيات، يقول فيها:

يا بأبي سيدي الحسينَ وقد　　　أظمأهُ الرِّجسُ حين ناواهُ
يا بأبي نفسهُ يجود وقد　　　جاهَدَ في الدين يوم بلواهُ
يا بأبي أهلهُ وقد قُتِلوا　　　من حولِهِ والعيونُ ترعاهُ[20]

لقد شكلت عبارة (يا بأبي) ايقاعاً حزيناً في هذه الأبيات، كما أوحت لنا بعمق المأساة التي مرَّ بها الامام الحسين (عليه السلام)، وهول الكارثة التي كانت فاجعة لأكثر المسلمين، فالا يقاع من خلال كونه التناوب الزمني المنتظم للظواهر المتراكبة هو الخاصية المميزة للقول الشعري، والمبدأ المنظم للغته[21]، فضلاً عن أنَّ ((كل تكرار مهما يكن نوعه، تستفاد منه زيادة النغم، وتقوية الجرس)) [22].

وفيما يتعلق بتكرار العبارات التي جاءت كلها في مدح الامام علي (عليه السلام)، نلاحظ أنَّ الشاعر كرَّرَ في احدى قصائده عبارة (أنتَ الذي) تسعاً وأربعين مرّة، وذلك في بداية تسعة واربعين بيتاً على التوالي من أصل القصيدة التي تبلغ سبعة وتسعين بيتاً، كانت كلها في مدح شخصية الامام علي (عليه السلام)، وبيان فضائله ومعجزاته، يقول في بعض أبياتها:

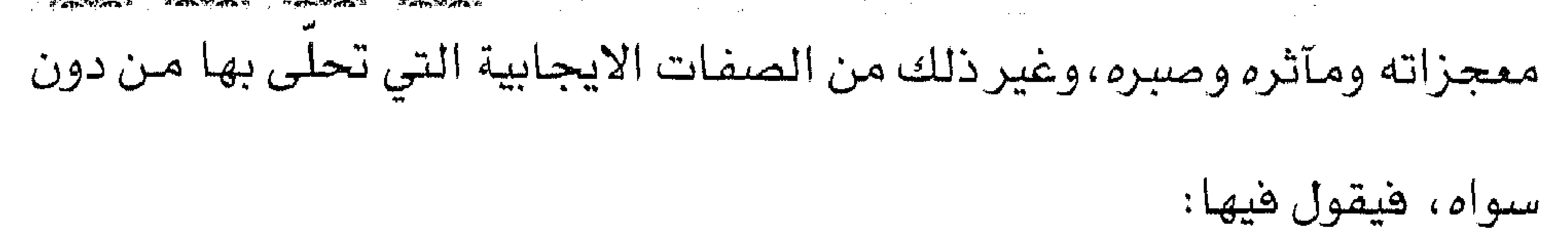
أنتَ الذي بسيفه　　　ورمحه الدينُ كَمَلْ
أنت الذي في الوحي تَبْـ　　　ـيينُ عُلاهُ قد نزلْ



أنــت الــذي نــام علــى الــ ـــفراشِ في ليــلِ الوَجَــل
أنــت الــذي صلّــى أمــا م النــاسِ مــعْ خــيرِ مُصــل
أنــت الــذي جَــدَّلَ فــي بــدر العفاريــتَ العُضَــل
أنــت الــذي فــي أُحُــدٍ ثَبَــتَّ طــوداً كالجَبَــل
أنــت الــذي بِخَيْبَــرٍ أزَحْــتَ أصــنافَ العلَــلْ
أنــت الــذي بالخَنــدقِ اشــ ــتَدَّ لعمــرٍ و فاضمَحَــل
أنــت الــذي فــي مَرْحَــبٍ حَكّــمَ أطــراف الأسَــل
أنــتَ الــذي يــومَ حُنَيْــ ــنٍ فرصــةَ النصــر اهتَبَــل
أنــت الــذي وُلّــيَ فــي بَــراءَةٍ فمــا اعتَــزَل
أنــت الــذي قــد حَمَــلَ الــرْ ـرَايــة في كــلِّ وَهَــل[23]

ويستمر الشاعر بتكرار هذه العبارة (أنت الذي) في بداية كثير من أبيات قصيدته، الأمر الذي أدى إلى حدوث ايقاع متناوب، وتكرار موسيقي جميل[24]، فـ ((للشعر نواح عدّة للجمال، أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع وتردد بعضها على قدر معين منها)) [25].

وفي قصيدة أخرى للشاعر تبلغ واحداً وأربعين بيتاً، في مدح الامام علي (عليه السلام)، يكرر الشاعر فيها عبارة (هل مثل) اثنتين وعشرين مرّة، في بداية اثنين وعشرين بيتاً، فضلاً عن ذكرها في بيت آخر، وذلك في اثنائه، لا في بدايته، وفيها يتحدث – أيضاً- عن بطولات الامام علي (عليه السلام)، وعن



معجزاته ومآثره وصبره، وغير ذلك من الصفات الايجابية التي تحلّى بها من دون سواه، فيقول فيها:

هل مثلُ فعلك في يوم الفراشِ وقد ... فديتَ بالروح خَتَّام النبيِّينا
هل مثل سَبْقِكَ في الإسلام ان ... وهذه الخصلةُ الغرّاء تكفينا
هل مثل علمكَ إنْ زلُّوا وإنْ وهنوا ... وقد هُديتَ كما أصبحتَ تهدينا
هل مثل سيفكَ في يوم الضِّراب وقد ... دارتْ رحى الحرب تجديعاً وتوهينا
هل مثل فعلك في بدر وقد حَمَشَتْ ... نفس الوغى وأسالت سَيْلَها حينا
هل مثل صَرعِكَ أعلامَ الضلال ولم ... تنفكّ تفلقُ هاماتِ الأضلّينا
هل مثل يومك في أحد وقد غُرِفَتْ ... عَصائبُ الشِّركِ تغييراً وتعيينا
هل مثل بأسِكَ مع عمرٍو وقد جبنوا ... وحاذروا الموتَ تعجيلاً وتحيينا
هل مثل قلعِكَ بابَ الكفرِ تحذفُهُ ... كأنَّه قُلَّةٌ من رَمْي رامينا
هل مثل فاطمةَ الزَّهْراءِ سَيِّدَةٌ ... زُوِّجْتَها ياجمالَ الفاطميينا
هل مثل نجليْكَ في فخرٍ وفي كرمٍ ... إذ كُوِّنا من بَلالِ المجد تكوينا
هل مثل حَوْزِكَ مجموع الوصية لا ... تخشى وقد جرَّها سوم المُسامينا
هل مثل عِزِّكَ في يوم الغدير وقد ... حصَّلْتَهُ سابقاً كلَّ المُجارينا
هل مثل كونِكَ هارونَ النبيِّ وقد ... شأوت بالقُرْبِ أصنافَ المُبارينا
هل مثل حالِكَ عند الطيرِ تحضرُهُ ... بدعوةٍ حُزْتَها دونَ المُصلِّينا
هل مثل فضلِكَ عند النَّعْلِ تخصفُها ... ولم يكنْ جاحدوا التفضيل لاهينا
هل مثل بِرِّكَ في حال الركوع وما ... زكا كبِرِّكَ بِرٌّ للمُزَكِّينا
هل مثل بَذْلِكَ للعاني الأسير وللطـ ... ـفلِ اليتيم وقد أعطيتَ مسكينا
هل مثل أمرك إذ تتلو براءةَ في ... خير المواسمِ قد سُؤْتَ المُناوينا

هل مثل فتواكَ إذ قالوا مجاهــرةً: لـولا علـيٌّ هلكْنــا فــي فتاوينــا
هل مثل صبرِكَ إذ خانوا وإذ خَتَروا حتى جرى ما جرى في يوم صفّينـا
لو قلت ((هل مثلُ)) ما ناحت مطوَّقةٌ لما تقصَّيْتُ هاتيك التحاسينـا[26]

وللصاحب قصيدة أخرى، يردُّ فيها على بعض المعترضين والمنكرين فضل الامام علي (عليه السلام)، وفيها يكرر عبارتين بطريقة منسجمة، أمّا العبارة الأولى، فهي (ما بالهم) ردًّا على أولئك المعترضين، في حين كانت العبارة الثانية، هي (ما باله)، التي استثمرها في بيان فضائل الامام علي (عليه السلام)، فقد كرَّرَ هاتين العبارتين في بداية أبيات قصيدته أيضاً، وكان ذلك التكرار في اثني عشر بيتاً، يقول فيها:

ايـن الذيـن أعرضـوا عـن فضلـه وصدفـوا
مـا بـالهُمْ مـا وقفـوا في الحـربِ حيـثُ يقـفُ
مـا بـالهم مـا عرفـوا في علمِهـمْ مـا يعـرفُ
مـا بـالهم مـا رجعـوا إليـه لَمَّـا اختلفـوا
مـا بالـهُ يُـدعى إلى الـطْـ ـطَيرِ ولم يزدلفـوا
مـا بالـه يمشـي إلـى عمـرٍو وقـد تخلَّفـوا
مـا بالـه قـد حَمَـلَ الـرْ ـرَاية لَمَّـا انحرفـوا
مـا بالـه ولِّـيَ فـي بـراءةٍ إذْ صُرِفـوا
مـا بالـه قـد زُوِّجَ الـزْ زَهـراءَ حـين استشـرفوا
مـا بـالهم يـوم الغديـ ـرِ لم ينلـهُمْ شَـرَفُ
مـا بـالهم يـوم الكسـا ءِ أُبعِـدوا لم يُكْنَفـوا



مـــا بـــالهم يـــوم الفـــرا	شِ حـــين لم يُستَهْدفـــوا
مـــا بالـــه مـــن دونهـــم	هـــرونُ إذ يُكيّـــفُ [27]

ويسخر الشاعر – في قصيدة أخرى – من أَعداء الامام علي (عليه السلام)، من أمثال القاعدين والناكثين وغيرهم، وفي معرض الاستهزاء فيهم، نراه يردد عبارة (هيهات أين) بشكل متكرر في بداية أربعة أبيات من قصيدته هذه، التي يقول فيها :

هيهـــات أيـــنَ القاعـــدونَ وقـــد	أنحـــى بكلكلِـهِ علـــى بـــدرِ
هيهـــات أيـــن النـــاكثونَ وقـــد	وفّـــى حقـــوقَ الفـــتحِ والنصـــرِ
هيهـــات أيـــنَ القاســـطونَ وقـــد	رُدَّتْ إليـــهِ الشـــمسُ للعصـــرِ
هيهـــات أيـــن ثعالـــبٌ ضـــبحَتْ	عـن مُشـبلٍ ليـثٍ أبـيْ حُـرٍّ [28]

وفي بعض الأحيان يبالغ الصاحب في عباراته المكررة إلى أكثر من ذلك، فيكرر عبارة تحتلُ حيّزاً كبيراً من مساحة صدور الأبيات، وهي عبارة (مَنْ كالوصيِّ عليٍّ عند)، إذ كرر هذه العبارة أربع مرّاتٍ، في بدايات أربعة أبيات على التوالي، في قصيدة يمدح فيها الامام عليًّا (عليه السلام)، يقول فيها :

مَنْ كالوصيِّ عليٍّ عندَ سابقةٍ	والقومُ ما بينَ تضليلٍ وتسفيهِ
مَنْ كالوصيِّ عليٍّ عندَ ملحمةٍ	والسيفُ يأخذُ مَنْ يهوى ويعطيهِ
مَنْ كالوصيِّ عليٍّ عندَ مشكلةٍ	واعلمُهُ البحرُ قد فاضتْ نواحيهِ
مَنْ كالوصيِّ عليٍّ عند مخمصةٍ	وقد جادَ بالقوتِ ايثاراً لعافيهِ [29]







وليس ذلك فحسب، بل نراه مكرراً صدرَ البيت بأكمله بعبارة واحدة، في مجموعة كبيرة من الأبيات، وأقصد بها عبارة (لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي)، وذلك في قوله يمدح الامام عليًّا (عليه السلام):

لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	غَلَبَ الخضارِمَ كلَّ يومِ غلابِ
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	آخى النبيَّ اخوَّةَ الانجابِ
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	سَبَقَ الجميعَ بسُنَّةٍ وكتابِ
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	لم يَرضَ بالأصنامِ والأنصابِ
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	آتي الزكاةَوكان في المحرابِ
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	حَكَمَ الغديرُ له على الأصحابِ
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	قد سامَ أهلَ الشِّركِ سَوْم عذابِ
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	أزرى ببدرٍ كلَّ أصْيَدَ آبي
لم يعلموا أنَّ الوصيَّ هو الذي	تركَ الضلالَ مفلَّلَ الأنيابِ [30]

لقد تبيّن لنا ممّا مضى أنَّ ظاهرة التكرار في شعر الصاحب بن عباد، كانت ظاهرة كبيرة من دون شك، ممّا جعلها تشكل لمحة أسلوبية مهمة في شعره، على الرغم من عدم تفرده بها، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، وهذه الظاهرة كانت تنقسم على قسمين، كان القسم الأول في تكرار الألفاظ، في حين كان القسم الثاني في تكرار العبارات، وقد اتسم القسمان بصفات مشتركة فيما بينهما، وذلك من خلال كونهما لم يردا إلاّ في مدح الامام علي (عليه السلام)، باستثناء قصيدتين فقط، كانت احداهما في مدح (عضد

الدولة)، والأخرى في رثاء الامام الحسين (عليه السلام)، فضلاً عن مجيء ذلك التكرار كله – باستثناء القصيدة اللاكنية طبعاً – في بدايات الأبيات، سواء أكان على مستوى الألفاظ، أم على مستوى العبارات، وذلك ممّا يشكّل ظاهرة متفردة عند الصاحب من ناحية، ويدل على ولعه بتكرار الألفاظ والعبارات في بدايات أبياته من ناحية أخرى، بدليل عدم تكراره لتلك الألفاظ والعبارات في اثناء الأبيات، أو في أعجازها على الاكثر.

ولم تقتصر ظاهرة التكرار في شعر الصاحب بن عباد على تكرار الألفاظ والعبارات فحسب، وإنّما تعدّت إلى تكرار المعاني أيضاً، فكثيراً ما كان الشاعر يكرر المعاني نفسها في قصائد كثيرة، وفي مناسبات مختلفة، ولاسيما في مدح الامام علي (عليه السلام)، فمن ذلك أنّه كان ينسب له البطولة في كثير من المعارك مثل بدر وأحد وخيبر وحنين، من مثل قوله:

هو البَدْرُ في هيجاء بدرٍ وغيرُهُ   فرائصُهُ من ذُكرة السيف ترعُدُ
وكم خَبَرٍ في خيبرٍ قد رويتُمُ   ولكنَّكم مثل النعام تشرَّدُ
وفي أُحُدٍ ولّى رجالٌ وسيفُهُ   يُسَوِّدُ وجهَ الكفرِ وهو يُسَوَّدُ
ويوم حنينٍ حَنَّ للفَرِّ بعضُكم   وصارمُهُ عضبُ الغرار مُهَنَّدُ[31]

فنلاحظ تكراره لهذه المعاني نفسها في مناسبات مختلفة، وفي أوقات متعددة، فيقول مردداً ما قاله سابقاً:

يا يومَ بَدْرٍ أينْ مواقِفَهُ   ليعرفَ الناصبون مغزاهُ



ويا حنينُ احتفلْ لتنبئ عن	مقامِهِ والسيوفُ تغشاهُ
يا أُحُدُ اشهدْ بحقٍّ مشهده	واسْعَ لتفصيحْ بِقَدرِ مسعاهُ[32]

ويفعل الشيء نفسه، في قوله:

وفي يوم بدرٍ غنيةٌ وكفايةٌ	وقد ذُلِّلَتْ في مضربَيْكَ المصاعبُ
وفي أُحُدٍ لمّا أتيتَ وبعضُهم	-وإن سألوا صَرَّحْتُ-أسْوانُ هاربُ[33]

وربما يكون تكرار تلك المعاني نفسها في شعره على درجة كبيرة[34]، شيئاً ليس في مصلحة الشاعر وشعره؛ لأنّه – حتماً – سيُضعِف من القيمة الفنية لذلك الشعر، ففي الوقت الذي كان فيه تكرار الألفاظ والعبارات يشكّل عاملاً موسيقياً، يكون – في أكثر الأحيان – في مصلحة الشعر، يغدو تكرار المعاني عامل ضعف فيه، ولعلَّ ما يشفع للشاعر في تكراره ذلك، كثرة اعجابه بشخص الامام علي (عليه السلام)، الأمر الذي يدفعه إلى تكرار تلك المعاني في قصائده التي مدحه فيها، ولاسيما اذا ما علمنا الكم الهائل لتلك القصائد، مما جعله مضطرًّا إلى تكرار فضائل هذه الشخصية الفذّة من جهة، وغدا ذلك التكرار لمحة بارزة من لمحات شعره الاسلوبية من جهة ثانية.

ومن اللمحات الأُخر التي ميّزت اسلوب الصاحب بن عباد في شعره، هي استخدامه لألفاظ الحوار كثيراً، ولاسيما ألفاظ القول، وللحوار أثر مهم في



الشعر، وفي المتلقي على السواء، فهو يعمل على تصعيد الحدث وانمائه[35]، كما يهدف إلى ((التأثير في المتلقي)) [36] .

وكان الحوار من الأساليب الشعرية التي تطرّق اليها الشعراء كثيراً في قصائدهم، سواء الذين سبقوا الصاحب، أو الذين جاءوا بعده، وبمعنى آخر، لم تكن ظاهرة الحوار من المزايا التي اختصَّ بها الصاحب، إلاّ أنّ الحوار لديه كان ذا طابع خاص، وذا هدف مختلف عن أهداف الشعراء الآخرين الذين تطرقوا له ؛ وذلك من خلال كونه قد أسْتُثْمِرَ في غايات نبيلة وسامية، وأهداف عُليا، كما سنرى.

وبما أنّ الحوار الجيد هو الحوار الذي لايقف ساكناً ولا راكداً لكي يحلّل ويعلّل، بل هو الحوار الذي يحمل المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة[37]، أقول : بما أنه كذلك، استثمره الصاحب في الحديث عن الذات الإلهية، وفي توحيد الله (سبحانه وتعالى)وتنزيهه، وفي الرد على المشككين بوحدانيته، قائلاً:

أُنَـزِّهُ ربَّ الخلـق عـن حَـدِّ خلقِـهِ   وقـد زاغ راوٍ في الصـفات ومُسْنِدُ

فهـذا يقـولُ : اللّـهُ يهـوى ويصعـدُ   وهذا لَدَيه اللّه – مذكان – أمْرَدُ

تبـارك ربُّ المُـرْدِ والشّـيب، انهـم   لَأكفَرُ من فرعون فيه وأعْنَدُ[38]

ومنذ الأبيات الأُول من هذه المحاورة في القصيدة، نلاحظ أنّ الشاعر لايأتي بألفاظ القول بالنسبة للطرف المجيب، الذي كثيراً ما كان الشاعر



نفسه، فهو يكتفي بالإتيان بألفاظ القول للطرف المُحاوِر، لذا فانه يأتي باللفظ (وقلنا) في وقت متأخر من هذه المحاورة، كقوله:

وآخرُ قال : العرشُ يفضل قدرَهُ	وأوهم أنّ اللّهَ جسمٌ مُجَسَّدُ
وآخرُ قال: اللّهُ جسمٌ مجسَّمٌ	ولم يَدْرِ أنَّ الجسمَ شيءٌ محَدَّدُ
وأنَّ الذي قد حُدَّ لابُدَّ محْدَثٌ	اذا ميَّز الأمرَ اللبيبُ المؤيّدُ
لقد زعموا ما ليس يعدوه مشركٌ	وقد أثبتوا ما ليس يخطوهُ مُلحِدُ
وقلنا: بأنّ الله لاشيء مثلُهُ	هو الواحدُ الفردُ العليُّ المُمَجَّدُ[39]

ويستمرّ الشاعر بسرد الأدلة التي تؤكد ابتعاد الذات الإلهية عن مشابهتها للمخلوقات، وسوى ذلك من ابتعاده عن اجبار الناس في ارتكاب الذنوب، والوقوع في الخطأ، ثم يُكثر الشاعر من ألفاظ القول في محاورته، من مثل (يقولون، وقالوا، وقلنا)، فيقول في الموضوع نفسه، والهدف عينه:

يقولون : إنَّ اللّهَ يخلقُ سَبَّهُ	ليُشْتَم كلاً فهو أعلى وأمجدُ
وقالوا : أرادَ الكفرَ والظلمَ والزنا	وقَتلَ النبيينَ الذين تعبَّدُوا
فكلَّفَ مَنْ لم يستطِعْ فِعْلَ مُحْنَقٍ	على عبده حاشاه ممّا تزيَّدوا
وعاقبه عن تركِهِ الفعلَ-لم	عقاباً له من بالجحيم مُخَلَّدُ
يقولون: عَدْلٌ أنْ يكلِّفَ مُقْعَداً	قياماً وعَدْوًا مُسْرِعاً وهو مُقْعَدُ
وقلنا: بأنَّ اللّهَ عَدْلٌ وأنَّهُ	يُكلِّفُ دون الطّوْق ما هو أحمدُ[40]

وكانت القصيدة الحوارية الثانية في شعر الصاحب بن عباد، مكونة من أربعة وستين بيتاً، وقد بدأ الشاعر صدور أبياتها كلها بلفظ القول

(قالت)، ذي الدلالة على وجود امرأة كانت طرفاً في المحاورة، في الوقت الذي كان فيه الشاعر طرفاً آخرَ في تلك المحاورة، وقد بدأ أعجاز تلك الأبيات كلها أيضاً بلفظ القول (قالت)، مما جعل القصيدة كلها عبارة عن محاورة مفتوحة بين اثنين.

وقسَّمَ الشاعر قصيدته هذه على سبعة أقسام متنوعة المضمون، كان في القسم الأول منها يتحدث عن نفسه، وعن عدم تواصله مع المرأة المحاورة، من ناحية العاطفة، وتحدث – كذلك- عن مذهبه الديني في هذا القسم من القصيدة، قائلاً :

قالت: أبا القاسم استَخْفَفْتَ بالغَزَلِ	فقلتُ: ما ذاك من همِّي ولا شغلي
قالت : أريدُ اعتذاراً منك تظهرُهُ	فقلتُ: عذراً وما أخشى من العَذَلِ
قالت : أُلِحُّ على تكريرِ مسألتي	فقلت: ما أنا عن رأيي بذي حوَلِ
قالت: أُريدُ رشاداً منكَ أتبعُهُ	فقلت: سمعاً فانَّ الرشدَ من قبلي
قالت : أبِنْهُ فاني جِدٌّ سامعة	فقلت: كيف اجتماعُ الشيب
قالت: وكيف اقتضاكَ الشيبُ تركَ	فقلت: في الشيب ادناءٌ من الأَجَلِ
قالت: فما اخترتَ من دينٍ تفوزُ بهِ	فقلت: إنّي شيعيٌّ ومعتزلي
قالت : أقلَّدتَ أم قد دنتَ عن نظرٍ	فقلت: كلاّ فاني واحدُ الجَدَلِ[41]

وكان الحديث في القسم الثاني من هذه المحاورة، عن رب الكون (سبحانه وتعالى)، وعن تأكيد وجوده، واثبات وحدانيته، وانه ليس بجسم ولا عَرض، يقول:



قالت: فكيف عرفتَ الحقَّ هات به فقلت: بالفكر في الأقوالِ والعِلَلِ

قالت: فهل هذه الأجسام محدثةٌ فقلت: جدًّا وإنْ رمتِ الدليلَ سَلي

قالت: أريدُ دليلاً فيه مختصراً فقلت: أن ليس فيها غيرُ مُنْتَقِلِ

قالت: فهل صانعٌ تدعو اليه أجب فقلت: لابدَّ قولاً غير ذي مَيَلِ

قالت: فهل من دليلٍ فيه تذكُرُهُ فقلتُ: بيتٌ بلا بانٍ من الخَطَلِ

قالت: فهل ذو شِبْهٍ وذو مَثَلِ فقلت: قد جَلَّ عن شبه وعن مَثَلِ[42]

وتستمر المحاورة على هذه الوتيرة، سؤال عن طريق السائلة، وجواب من لدن الشاعر عن صفات اللّه، وتنزيهه عن مشابهة مخلوقاته.

أمّا القسم الثالث: فكان يتكون من بيتين فقط، جرى فيهما الحديث عن القرآن، كتاب المسلمين، وذلك من خلال:

قالت: فما القولُ في القرآنِ سُقْهُ لنا فقلت: ذاك كلامُ اللّهِ أينَ تُلي

قالت: فأينَ دليلُ الخَلْقِ فيه أبِنْ فقلتُ: تركيبُهُ من أحرفِ الجُمَلِ[43]

ثم هناك عودة للحديث عن الذات الالهية، في القسم الرابع من محاورة هذه القصيدة، وذلك للحديث عن الأعمال التي يفعلها الانسان، هل هي بارادة منه، أم بارادة من اللّه (سبحانه)، وذلك من خلال هذه المحاورة:

قالت: فأعمالُنا منْ ذا يكوِّنُها فقلت: نحنُ مقالاً صِيْنَ عن خَلَلِ

قالت: ولِمْ لايكونُ اللّهُ خالقَها فقلت: لو كُنَّ خَلْقًا لَم يكنْ عملي

قالت: أيُلزم نفساً فوق طاقتِها فقلت: حاشاه هذا فعلُ ذي خَبَلِ

قالت: يشاءُ معاصينا ويؤثِرُها فقلت: لو شاءها لم نخشَ من زَلَلِ[44]



أمّا القسم الخامس من هذه المحاورة، فقد تكوّن – هو الآخر – من بيتين فقط، كالقسم الثالث منها، وفيه تَمَّ الحديث عن النبي محمد (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، وعن المعجزة التي وهبها له الله (سبحانه وتعالى)، ويقول فيه الشاعر:

قالت: فمن صاحبُ الدين الحنيف   فقلت: أحمدُ خيرُ السادة الرُّسُلِ
قالت: فهل معجزٌ وافى الرسولُ به   قلت: القرآنُ وقد أعيا على الأُوَلِ[45]

وكان القسم السادس من هذه القصيدة، أطول الأقسام كلّها، إذ تكوّن من ثلاثين بيتاً، وتمَّ الحديث فيه بين المتحاوِرَين عن فضائل الامام علي (عليه السلام)، وعن بطولاته، ومفاخره التي حازها في ذلك الوقت، وامتدَّ صداها إلى يومنا هذا، فيقول الصاحب في بعض الأبيات من هذه المحاورة:

قالت: فَمَنْ بعده يُصْفى الولاء له   قلت: الوصيُّ الذي أربى على زحلِ
قالت: فهل أحَدٌ في الفضلِ يقدمُهُ   فقلت: هل هضبةٌ ترقى على جبلِ
قالت: فمَنْ أوَّلُ الأقوامِ صدّقَهُ   فقلت: مَنْ لم يصرْ يوماً إلى هُبَلِ
قالت: فمن بات من فوق الفراشِ   فقلت: أثْبَتُ خلق اللّهِ في الوَهَلِ
قالت: فمن ذا الذي واخاه عن مِقَةٍ   فقلت: مَنْ حازَ ردَّ الشَّمْسِ في
قالت: فمن زُوِّجَ الزهراءَ فاطمةً   فقلت: أفضلُ من حافٍ ومُنْتَعِلِ
قالت: فمن والدُ السبطيْن إذ فَرَعا   فقلت: سابقُ أهل السَّبْق في مَهَلِ[46]

وتستمر المحاورة بهذا الشكل إلى مدى طويل، يشيد فيها الشاعر بفضائل الامام علي (عليه السلام) ومنجزاته الفذة، ومهمة الحوار ليس في رواية

ما حدث وانما جعل الشخصيات تعيش حوادثها أمامنا وتتحرك مباشرة من دون وسيط[47]، كما أنّ ((الحوار ينتقي له خير الأساليب المعبرة عن الشعور والعاطفة))[48]، وذلك ما فعله الصاحب في محاورته هذه، إلى أنْ صَرَّحَ للسائلة باسم بطل تلك المواقف كلها، في قوله:

قالت: أكُلُّ الذي قد قلتَ في رجلٍ   فقلت: كُلُّ الذي قد قلت في رجلِ
قالت: ومَنْ هو هذا المرء سَمِّ لنا   فقلت: ذاك أميرُ المؤمنين علي[49]

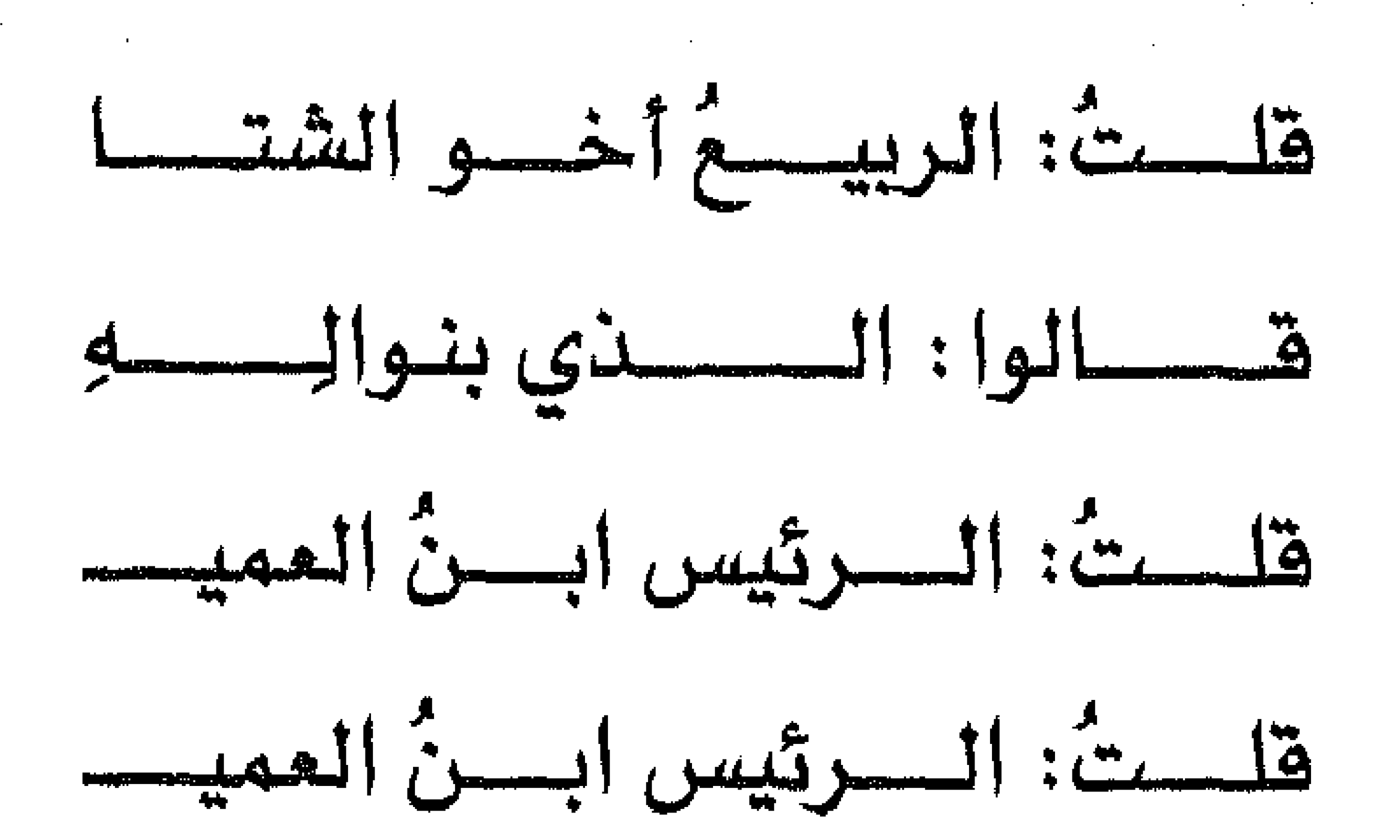
وكان القسم السابع والأخير من هذه القصيدة، يتحدث فيه الشاعر عن حبِّه لعن معاوية بن أبي سفيان، وتكفيره، ثم يفتخر بشعره بالنسبة لما قاله في هذه القصيدة، فيقول:

قالت: معاويةُ الطاغي أتلعنُهُ   فقلت: لعنتُهُ أحلى من العسلِ
قالت: تُكَفِّرُه فيما أتى وعَتا   فقلت: اي والهِ السهلِ والجبلِ
قالت: أهَلْ لكَ من نظمٍ لِنَرْوِيَه   فقلت: إنَّ جوابي فيه حيَّ هلِ
قالت: فَأمْلِ على هذا الفتى عَجِلاً   فقلت: هذا ولم ألبَثْ ولم أتُلِ
قالت: امُبْتَدِهًا في القولِ مرتجلاً   فقلتُ: ما قلتُ شعراً غير مرتَجَلِ
قالت: أتيتَ ابنَ عبّادٍ بمعجزةٍ   فقلت: لاتعجبي فالشعر من خولي
قالت: فهل منشدٌ ترضى لينشدها   قلت: ابنُ صالحِ النحريرُ ينشد لي[50]

ويستثمر الصاحب الحوار في مقطوعة يمدح فيها استاذه (ابن العميد)، يقول فيها:

قالوا: ربيعُك قد قدمْ   فَلَكَ البشارة بالنِّعَمْ





قلـــتُ: الربيـــعُ أخـــو الشتـــا ... ءِ أم الربيـــعُ أخـــو الكَـــرَمْ؟

قـــــالوا : الـــــذي بنـوالـــــهِ ... يُغنـــى المقـــلُّ عـــن العَـــدَمْ

قلـــتُ: الـــرئيس ابـــنُ العميــــ ... ــدِ المقـــلُّ عـــن العَـــدَمْ

قلـــتُ: الـــرئيس ابـــنُ العميــــ ... ــدِ اذاً فقـــالوا لـــي : نَعَـــم(51)

وبذلك يكون الحوار من اللمحات الاسلوبية المهمة، التي ميّزت شعر الصاحب بن عباد عن شعر غيره، وكما ذكرت سابقاً، استثمره الشاعر من أجل أهداف عليا، وغايات نبيلة وسامية.

ومن الأمور الأُخر التي وسمت شعر الصاحب بن عباد بطوابع خاصة، النظم الشعري على شكل مزدوجات، أي نظم القصيدة على شكل أبيات، يلتزم في كل بيت فيها بقافية خاصة، تكون موحّدة في صدر البيت وعجزه، على أن لاتُلتزَم، أو تطّرد في أبيات القصيدة كلها، أي أنّ لكل بيت في المزدوجة قافية خاصة به تُلتزَم في صدر البيت وعجزه، وهذا الاسلوب الشعري عُرِفَ في العصر العباسي، وتطرق له بعض الشعراء في نظمهم، غير أنَّ ما يميِّز نظم الصاحب فيه، هو أنّه نظم مزدوجتين، كانتا كلاهما في ابلاغ سلامه إلى الرسول محمد (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، وكذلك يرغب في نقل تحياته وسلامه إلى آل بيت النبي (عليهم السلام أجمعين)، أي أنَّ القصيدتين متشابهتان في موضوعهما، ولم ينظم المزدوجات في سوى ذلك.



وتبلغ المزدوجة الأولى ستة عشر بيتاً، في حين بلغت المزدوجة الثانية سبعة عشر بيتاً، آثرتُ أن أتمثل بهما كاملتين، من دون قطع، أو حذف لبعض أبياتهما؛ وذلك لما لهما من أثر كبير في نفوس المسلمين بوجه عام، ومحبي آل البيت (عليهم السلام) على وجه خاص.

يقول الصاحب في مزدوجته الأولى:

يازائراً قد قصد المشاهدا ... وقطع الجبالَ والفدا فدا
فأبلغ النبيَّ من سلامي ... ما لايَبيدُ مدَّةَ الأيامِ
حتى إذا عدتَ لأرضِ الكوفَهْ ... البلدةِ الطاهرة المعروفَهْ
وصرتَ في الغريِّ في خير وَطَنْ ... سلِّمْ على خير الورى أبي الحَسَنْ
ثُمَّتَ سِرْ نحو بقيع الغرقدِ ... مُسلِّماً على أبي محمدِ
وعُدْ إلى الطف بكربلاءِ ... أهدِ سلامي أحسن الاهداءِ
لخير مَنْ قد ضمَّهُ الصعيدُ ... ذاك الحسينُ السَّيِّدُ الشهيدُ
واجنبْ إلى الصحراء بالبقيعِ ... فثَمَّ أرضُ الشرفِ الرفيعِ
هناك دين السبطين الأزهرُ ... وباقرُ العلمِ وثمَّ جعفرُ
أبلغهُمُ عني السلامَ راهناً ... قد ملأ البلادَ والمواطنا
واجنب إلى بغداد – بعدُ – العيسا ... مُسَلِّماً على الزكيِّ موسى
واعجل إلى طوس على أهدى ... مُبَلِّغاً تحيتي أبا الحسنْ
وعُدْ لبغداد بطير أسعدِ ... سلِّمْ على كنز التُّقى محمدِ
وأرض سامراء أرض العسكرِ ... سلِّمْ على عليٍّ المطهَّرِ
والحسن الرضيِّ في أحوالِهِ ... مَنْ منبعُ العلوم في أقوالِهِ





فانهـــم دون الأنـــام مفزعـــي ومَنْ اليهمْ كلّ يومٍ مرجعـي[52]

ويقول الشاعر في مزدوجته الأخرى، والتي لم يخرج مضمونها عن مضمون مزدوجته الأولى:

يـــازائرين اجتمعـــوا جموعـــا وكلُّهُمْ قـد أجمعـوا الرجوعـــا
اذا حللتُـــمْ تـــربةَ المدينـــةْ بخـــير أرضٍ وبخيـــر طينَـــهْ
فـــأبلغوا محمـــدَ الـزكيَّـــا عنّـــي السـلامَ طيِّبـــاً ذكيّـــا
حتـــى اذا عـــدتُمْ إلى الغـــريِّ فسـلِّموا عنّـي علـــى الوصـــيِّ
وبعـــدُ بـــالبقيع في خـــير وَطَـــنْ أهدوا سلامي نحو مولاي الحَسَنْ
وأبلغـوا القتلـى بـأرض الطـفِّ تحـيتي ألفـــان بعـــد ألـــفِ
ثمَّـتَ عـودوا لبقيـع الغـــرقدِ نحـو عليٍّ بـن الحسين سـيدي
وبـاقر العلـم أخـي الذخائـــرِ ومعـــدن العليـــاء والمفـــاخـــرِ
وكنـز علـم اللّـه في الخلائـــقِ جعفـرِ الصـــادقِ أتقـى صـــادقِ
فبلِّغـوهم مـن سـلامي النامـــي مـــالا يـــزولُ مـــدَّةَ الأيـــامِ
حتـــى اذا عـــدتُمْ إلى بغـــدانِ لمشـــهد الزكـــاءِ والرضـــوانِ
فبلِّغـــوا عنـــي سـلاماً دائبـا سـلامَ مَـنْ يـرى الـولاءَ واجبـا
وواصـلوا السـير وزوروا طوسـا نحـو عليٍّ ذي العلـى [كـذا] بـن
حيُّوه عنّـي مـا أضـاء كـوكبُ ومـا أقـام يذبـلٌ وكبـكبُ
وسلمـــوا بعـــد علـــى محمـــدِ بـأرض بغـدانٍ زكـيِّ المشـهدِ
واعتمـــدوا عسكـــرَ سـامرّاءِ أهـدوا سلامـي أحسـنَ الاهـداءِ
نحـــو علـيٍّ الطاهـــرِ المطهَّـــرِ والحسنِ المحسـنِ نجلِ حيدرِ[53]



وربما يكون لرغبة الشاعر في الخروج على نظام القافية المعروف، سبب وجيه لنظمه هاتين القصيدتين على شكل المزدوجات، فخرج عن نظام القافية التقليدي، ومما يؤكد رغبته هذه، هو نظمه لرباعية طويلة تبلغ سبعين بيتاً، التزم فيها بقافية موحدة في كلّ أربعة أشطر من القصيدة، على أن تتغيّر هذه القافية في الأشطر الأربعة التالية، في الوقت الذي تلتزم فيها بقافية موحدة أيضاً، وهكذا حتى نهاية القصيدة.

وكان موضوع رباعية الصاحب في التوحيد، وتحدث فيها عن أمور مختلفة، تتعلق بعلاقة الانسان بالذات الإلهية، يقول في بعضها:

حَمْداً لـربٍّ جلَّ عن نَديدِ	وجَلَّ عن قبائحِ العبيدِ
أُدينُهُ بالعدلِ والتوحيدِ	والصدقِ في الوَعْدِ وفي الوعيدِ

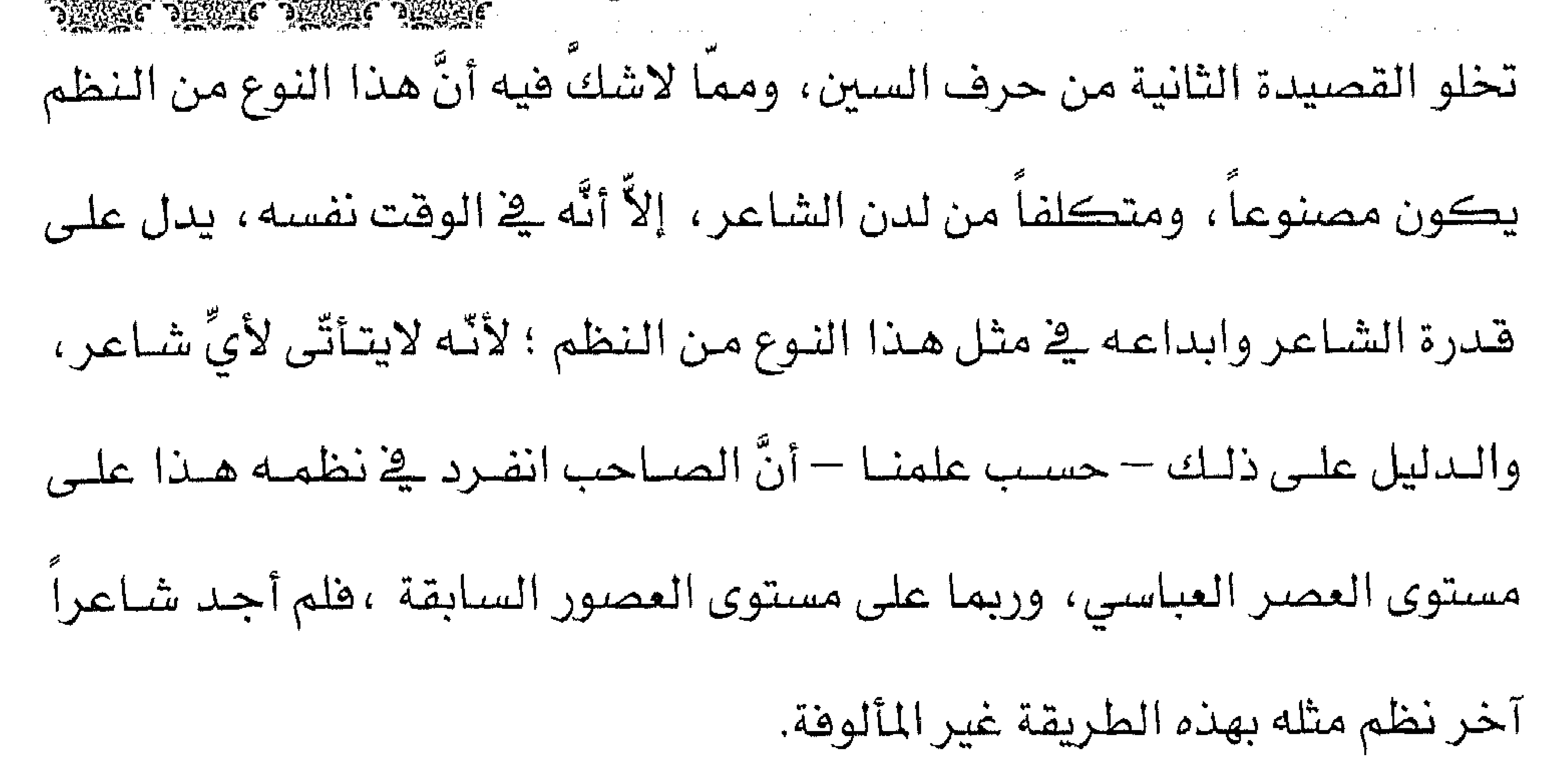
[...]

عَزَّ فما تُدْرِكُهُ الأبصارُ	كلاَّ ولا تبلغُهُ الأفكارُ
ولالَهُ كَيْفٌ ولا استقرارُ	ولالهُ أيْنٌ ولا أقطارُ(54)

ثم يفتخر الصاحب بجودة شعره في خاتمة رباعيته، قائلاً:

وتمَّت الأبياتُ بالرشادِ	على ارتجالٍ من فتى عَبَّادِ
قد صدرتْ من خالص اعتقادِ	بالخيرِ والتوفيقِ والاسعادِ(55)

اذن، شكّلت مزدوجتا الصاحب، ورباعيته لمحة أخرى من لمحات شعره الأسلوبية، وربما تكون اللمحة الأخرى أكبر بكثير ممّا مضى، وأعني بهذه اللمحة نظمه لقصيدتين طويلتين، تخلو احداهما من حرف الألف، في حين



تخلو القصيدة الثانية من حرف السين، وممّا لاشكّ فيه أنَّ هذا النوع من النظم يكون مصنوعاً، ومتكلفاً من لدن الشاعر، إلاّ أنَّه في الوقت نفسه، يدل على قدرة الشاعر وابداعه في مثل هذا النوع من النظم ؛ لأنّه لايتأتّى لأيٍّ شاعر، والدليل على ذلك – حسب علمنا – أنَّ الصاحب انفرد في نظمه هذا على مستوى العصر العباسي، وربما على مستوى العصور السابقة ،فلم أجد شاعراً آخر نظم مثله بهذه الطريقة غير المألوفة.

ومما قاله في قصيدته الأولى التي تخلو من حرف الألف متغزلاً :

قد ظلَّ يجرحُ صدري ... مَنْ ليس يعدوهُ فكري
ظبيٌ بصفحة بَدْرٍ ... يزهو به سطرُ شَعْرِ
كم ملتُ فيه لوصلٍ ... وكم يميلُ لهَجْرِ
يُغري همومي بقلبي ... فكم يجورُ ويُغري
حسبتُ نومِيَ فيهِ ... من قُلِّهِ بَعْضَ صَبْرِ (56)

ثم يتحدث في هذه القصيدة عن المعارك التي اشترك فيها الامام علي (عليه السلام)، وكان بطلاً مغواراً، فضلاً عن الحديث عن مكانته، قائلاً :

لو كنتَ تُصغي لقولي ... دوَّنتُ غزوةَ بدرِ
نَعَمْ وخبَّرتُ عمَّنْ ... يسري ويبري ويفري
وخيبرٌ لو خَبَرْتُمْ ... عنه كمكنونِ خبري
لكُنْتُمُ في يقينٍ ... لم تُخْفِهِ يدُ سِتْرِ
ولي بذكرِ حُنَيْنٍ ... تَفَرُّحٌ ليسَ يُكري

وعنـــد قتلـــةِ عَمْـــرِو ومعجـــزٌ قَتْـــلُ عمـــرِو

ومرحـــبٌ نســـلُ كفـــرِ ونســـلُ شِـــرْكٍ ونُكْـــرِ

كـــم فيـــهِ متلـــوُّ نـــصٍّ يجلـــوهُ مُصْـــحَفُ ذكـــرِ

لـــهُ مزيَّـــةُ طيـــرِ تطـــيرُ مـــن خـــيرِ وَكْـــرِ

قـــد زفَّـــهُ جبرئيـــلٌ ولم يكـــن غـــيرَ جَهْـــرِ

غـــديرَ خُـــمٌّ تكلَّـــمْ لمشـــهدٍ جِـــدّ حُـــرٌّ (57)

ويفتخر الشاعر – ايضاً – في خاتمة قصيدته بجودة شعره في مدح الامام علي (عليه السلام)، ويذكر أنّه عمل هذه القصيدة محذوفاً منها حرف الألف، الذي لا يسهل الاستغناء عنه في الكلام، فيقول:

ومـــدحي لَهُـــمْ زَوْرُ ســـحرِ يحُـــلُّ سَـــحْري ونَحـــري

كـــوفيُّ خُـــذْهُ فطبـــعي قـــد زَفَّ دُرَّةَ بَحْـــرِ

بدفْعـــةٍ لم تُيَسَّـــرْ بغـــيرِ طبعـــي وفكـــري

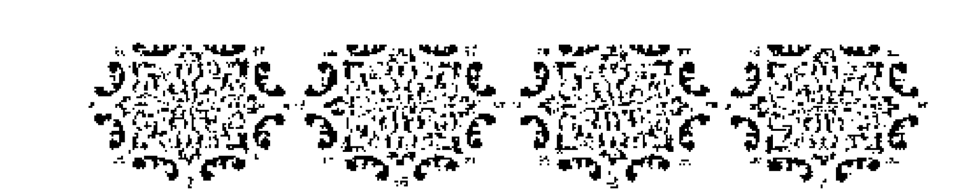
تَمَّـــتْ علـــى حـــذف حـــرف يـــدور في كـــلِّ ذكْـــرِ

ومعجـــزي مُسْتَمِـــرٌّ في سِـــدِّ نظمـــي ونثـــري

فلـــن يحـــلَّ لحُـــرٌّ تشـــبيهُ شِـــعْرٍ بشـــعرِ(58)

ومن الملاحظ أنَّ حذف الألف من هذه القصيدة، لم يترك أثراً سلبياً فيها، ولاسيما اذ ما علمنا قيمة هذا الحرف وأهميته في الكلام، وذلك – قطعاً – ممّا يؤكّد قدرة الشاعر على النظم في مثل هذا النوع من القصائد.

والقول نفسه ينطبق على قصيدته التي نظمها من دون حرف السين، والتي مدح فيها الامام علياً (عليه السلام)، بعد مقدمة غزلية، إذ يقول :



روحي فداءُ أبي ترا ... بٍ إنَّهُ بحرُ الفوائدْ

بحرُ الفوائدِ والعوا ... ئدِ والمَناصِبِ والمراشد

فَلَكُ المجامعِ والمحا ... فِلِ والمقاوِلِ والمقاصد

نالَ الفراقِدَ والذي ... قد قدَّموه بعْدُ راقدْ

واللّهِ ما جَحدوهُ عن ... حقٍّ على الأيامِ خالد

إلاّ لثاراتٍ تَقا ... دَمَ عهدُها في قلب حاقد

ومحلُّهُ فوقَ الاما ... مَةِ لو يُرَى للفضل ناقد

لولا فتاويهِ لكا ... نَ أجلُّهُمْ يقظانَ راقد

هُوَ أوحدٌ بعد النَّبيْـ ... ـيِ المصطفى والحقُّ واحِد

وفخارُهُ يتناولُ الـ ... ـزُّهْرَ الثواقبَ وهو قاعِد

نَصَرَ النبيَّ المصطفى ... عند العظائمِ والشدائِد[59]

ومثلما افتخر الصاحب في نهاية قصيدته السابقة، فعل الشيء نفسه في نهاية قصيدته هذه أيضاً، إذ افتخر فيها بجودة شاعريته وشعره ؛ لأنه نظمها خالية من حرف السين، ففي ذلك يقول:

يا أيُّها الكوفيُّ هذي ... غُرَّةٌ بين القصائدْ

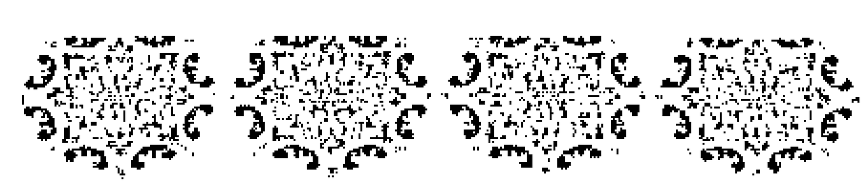
أوْرِدْ تُها ترمي النَّوا ... صِبَ بالصوائبِ والصَّوارِدْ

ضَحَّتْ بهم في عيدِ أضْـ ... ـحَى أنَّهُمْ نَعَمٌ شَوارِد

وحذفتُ أختَ الشينِ مِنْـ ... ـها عن طِلابِ أخٍ معانِد

أنشِدْ وردِّدْ أنَّها ... زادُ القيامةِ للمَعابِد

أجْرُ ابنِ عبَّادٍ بها ... يوفي على عشرين عابِد[60]



علماً ان عدد أبيات هاتين القصيدتين من الطول، بحيث يبلغ في الأولى اثنين وخمسين بيتاً، في حين يبلغ في الثانية ثمانية وخمسين بيتاً، لذا تعدّ القصيدتان من ضمن القصائد الطوال، وليس من السهل على الشاعر أن يحذف حرفاً منهما، من دون الحاق ضعف فيهما، وذلك مما يحسب للصاحب بن عبّاد، من ناحية الاسلوب الشعري القدير.

ومن سمات شعر الصاحب الاسلوبية الأُخر، نظمه قصيدة في مدح الامام علي (عليه السلام)، على ترتيب الحروف الهجائية، فنراه يأتي – في قصيدته هذه، التي تبلغ سبعة عشر بيتاً – في بداية صدر البيت الأول بالحرف الهجائي الأول، وأعني به الألف، ثم يأتي – في بداية عجز البيت نفسه – بالحرف الهجائي الثاني، وأعني به الباء، وهكذا إلى نهاية القصيدة التي تنتهي بانتهاء الحروف الهجائية، فضلاً عن خاتمة، يفتخر فيها الشاعر باسلوبه في نظم قصيدته هذه، ويفضل الباحث التمثيل بالقصيدة كلها ؛ ليتبيّن المتلقي – بوضوح كامل لانقص فيه – جدّة النظم، وحداثته لدى الشاعر، الذي يقول في قصيدته :

ألفٌ: أميرُ المؤمنين عليٌّ	باءٌ:بهِ ركنُ اليقين قويٌّ
تاءٌ: تَوى أعدائه [كذا] بحسامه	ثاءٌ: ثَوى حيثُ السماكُ مُضِيٌّ
جيمٌ: جرى في خيرِ أسباقِ	حاءٌ: حوى العلياءَ وهو صبيٌّ
خاءٌ: خَبَتْ حسّادُهُ من خوفه	دالٌ: دَرى ما لم يَحُزْ النسيٌّ



ذالٌ: ذُؤابــةُ مجــدِهِ فــوق   راءٌ: رَوِيٌّ فخــارِهِ علــويٌّ
زايٌ: زَوى وجـهَ الظلالـةِ سيفُـهُ   ســينٌ: ســبيلُ يقينِـهِ مَرْضـيٌّ
شـينٌ: شـأى أمَـدَ المُجاري سَبْقُـهُ   صـادٌ: صـراطُ الـدينِ منـه سَـويٌّ
ضـادٌ: ضـياءُ شموسِهِ نـورُ الـورى   طـاءٌ: طريـقُ علومِـهِ نَبَـوِيٌّ
ظـاءٌ: ظـلامُ الشَّـكِّ عنـه زائـلٌ   عـينٌ: عـرينُ أُسـودِهِ مَحمِـيٌّ
غـينٌ: غـرارُ حسـامِهِ حتـف العـدى   فـاءٌ: فسـيحُ الـراحَتَيْنِ سَخِـيٌّ
قافٌ: قفـا طـرقَ النـبيِّ المصطفى   كـافٌ: كـريمُ المنتمـى قرشِـيٌّ
لامٌ: لقاحُ الحربِ محـروس الـذرى   مـيمٌ: منيـعُ الجـانبينِ تقـيٌّ
نـونٌ : نقـيُّ الجَيْـبِ مـرفوعُ البنـا   واوٌ: وصـيُّ المصـطفى مهـديٌّ
هـاءٌ: هـديَّةُ رَبِّـهِ لنبيِّـهِ   يـاءٌ: يُقـيمُ الـدينَ وهـو رضـيٌّ
أهـدى ابـنُ عبَّـادٍ اليـهِ هـذهِ   غـرَّاءَ لم يفطـنْ لهـا شيعـيٌّ
يرجـو بهـا حُسْـنَ الشـفاعةِ عنـدَهُ   حَسَـنُ الـولاءِ موحِّـدٌ عَدْلـيٌّ
أبرزْتُهـا مثـل العـروسِ بديهـةً   فليبتَـدِرْ لنشـيدِها الكـوفِيٌّ(61)

ولا يعلم الباحث شاعراً اتبع هذا الاسلوب في الشعر غير الصاحب في قصيدته هذه، غير أنَّ الشاعر قد جانب الصواب فيما يتعلق بترتيب الحرفين (الهاء والواو)، فقدّم الواو، التي من حقّها أن تتأخّر، وأخّر الهاء، التي من المفروض أن تتقدّم، بحسب ترتيب الحروف الهجائية المعروفة.

ولكن تبقى هذه اللمحة في شعر الصاحب، من أبرز اللمحات الاسلوبية لديه؛ وذلك لتفرده بها، من دون سواه من الشعراء الآخرين.



إنَّ هذه اللمحات الاسلوبية في شعر الصاحب، تجعلنا نقطع بأنّه كان يخطط تخطيطاً مسبقاً لنظم قصائده، وأكبر دليل على ذلك، هو تفرّده بأساليب لم يتّبعها أحد غيره من الشعراء، كما في الأمثلة السابقة التي تحدثنا عنها، وبيّنا لها، ومن ذلك أيضاً، لمحة جديدة ومبتكرة، استثمرها الشاعر في احدى قصائده، وهي أنّه يأخذ الكلمة الأخيرة التي أنهى بها البيت (القافية)، ثم يأتي بها في أول البيت اللاحق، ويكرر هذه العملية حتى نهاية القصيدة، وذلك ممّا يؤكّد هندسته الدقيقة التي كان يرسمها في بناء قصائده، التي نظمها متميزاً بها عن غيره من الشعراء العباسيين، وغير العباسيين.

يفتتح الشاعر قصيدته هذه بمقدمة غزلية، قبل الدخول في موضوعها الرئيس، فيقول:

مَشيبٌ عَراهُ لويدومُ مَشيبُ ... مشيبٌ بهِ ثوبُ الرشادِ قشيبُ
قَشيبٌ ولكنْ يخلُقُ المرءُ عندَهُ ... ويلقى ضُروبَ الأُنْسِ وهو مريبُ
مريبٌ اذا ما قيلَ: هل تذكُرُ الظّبا ... وعهدي بِجَنْبِ الجانبَيْنِ يطيبُ
يطيبُ وتَعْدادٌ كزَوْرَةِ مُعْجِبٍ ... لعاشِقِهِ والزَّوْرُ منه عجيبُ
عجيبٌ وكم حَنَّتْ لزَوْرَتِهِ الدُّجى ... فُؤاداً سقيمًا أو يكونُ طبيبُ
طبيبٌ ولكنَّ الحبيبَ طبيبُهُ ... يُناديهِ مَنْ يهوى وليس يجيبُ[62]

فنلاحظ في هذه الأبيات، كيف أنَّ الشاعر كان يبدأ البيت التالي بالكلمة نفسها التي أنهى بها البيت السابق، وهو يستمر بالطريقة نفسها حين يدخل في موضوع القصيدة الرئيس، بل إلى أن يُتِمَّ قصيدته كلها.





وبعد هذه المقدمة الغزلية، يدخل الشاعر مباشرة في مدح الامام علي (عليه السلام)، بقوله:

يُجيبُ اذا أنْحَى اجابةَ مُعْرِضٍ ... فقلبي لعيني بالدماءِ قَليبُ

قليبٌ حكى بَدْراً وكان قليبُهُ ... يفورُ دماءًا [كذا] والدماءُ صَبيبُ

صَبيبٌ تحدَّى ذا الفخارِ بخيلِهِ ... عليٌّ وأنّى للوصيِّ ضَريبُ

ضَريبٌ يُدانيهِ اذا حَمَسَ الوَغَى ... وسهم الرَّدى أنَّى يشاءُ يُصيبُ

يُصيبُ من الأبطالِ أرواحَها التي ... تَردُّ ظنونَ الموتِ وهي تخيبُ

تخيبُ فلمّا أنْ تنمَّرَ حيدرٌ ... فللحتفِ عودٌ في الرجال صليبُ

صليبٌ كما أودى بعمرٍو ومرحبٍ ... وذلك نهجٌ في القراعِ رحيبُ

رحيبٌ على كفِّ الوصيِّ وضيِّقٌ ... اذا رامَهُ غيرُ الوصيِّ يخيبُ

يخيبُ وما عضّتْ على نابها الرَّدى ... وأمّا إذا عَضَّتْ فذاكَ نَخيبُ

نخيبٌ وان عدّوهُ نخبةَ عَسكرٍ ... وكلُّ أبيٍّ في القراعِ خَنيبُ

خنيبٌ سوى الطُّهرِ الوصيِّ فانّهُ ... يعانقُ شخصَ الموتِ ليس يغيبُ

يغيبُ مناويهِ بغَرْبِ حُسَامِهِ ... إلى حيثُ لايلقى الحبيبَ حبيبُ

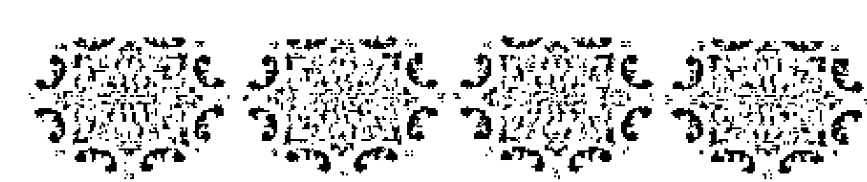
حبيبٌ إلى قلبي التشيُّعُ أنَّهُ ... لكُلِّ زكيِّ الوالدَيْنِ نصيبُ

نصيبٌ تَهاداهُ الملائكُ بينها ... وذو النصيبِ مغلوبٌ هناك حَريبُ

حريبٌ سليمٌ للجحيم مُهَيّأٌ ... اذا حانَ يومٌ للمعادِ عصيبُ

عصيبٌ على النصّابِ لكنَّ غصنَهُ ... على الشيعةِ المُسْتَمْسِكِينَ رَطيبُ

رطيبٌ وعودُ النصبِ إذ ذاكَ يابسٌ ... فللنارِ في تلك الجسوم لهيبُ(63)



ثم ينتقل الشاعر إلى ذكر واقعة الطّف في كربلاء، راثياً الامام الحسين (عليه السلام)، وكل الذين أُستشهِدُوا معه في ذلك اليوم، إذ يقول:

لهيبٌ بقلبي حين أذكرُ كربلا	فيهلكني بعد النحيبِ نحيبُ
نحيبٌ اذا قيلَ الحسينُ وقتلُهُ	يزيدُ وفي قلبي الحزين وجيبُ
وجيبٌ أراه واجباً بعد سادةٍ	تُغادَرُ صرعى والجميعُ غريبُ
غريبٌ بارضِ الطفِّ تُسبىَ نساؤهُ	وزينبُ وَلْهَى والمَرادُ جديبُ
جديبٌ ولكنَّ الزمانَ سينقضي	ويقبلُ نصرُ اللّهِ وهو قريبُ
قريبٌ كقُرْبي من عليٍّ ولايةً	بها كلّما خفتُ الذنوبَ أُنيبُ(64)

ويفتخر الشاعر – كعادته – بشعره في ختام قصيدته، ويبدو أنَّ ذلك الافتخار ما كان ليأتي، لولا ادراك الشاعر بطرافة ما يطرحه من أساليب مبتكرة في قصائده، فيقول في ذلك:

أنيبُ ومدحي فيه قد طبَّقَ الورى	قصائد عبَّاديَّة سَتُريبُ
تُريبُ رجالَ الحشوِ لمّا قمعتُها	كأنّي عليهمْ أين كنتُ رقيبُ
رقيبٌ وسيفي وانتقامي بمقولي	رقيبان كلٌّ سامعٌ ومجيبُ
مجيبٌ فيا كوفيُّ أنشِدْ مُجَوِّدًا	مشيبٌ عراهُ لويدومُ مشيبُ(65)

وبهذا تنتهي اللمحات الاسلوبية التي ميّزت شعر الصاحب بن عبّاد عن شعره غيره، وقد تبيّن لنا أنّ بعض تلك اللمحات، لم تكن حكراً على الشاعر، وانما اشترك معه فيها عدد كبير من الشعراء، كظاهرتَي التكرار، والحوار، ولكن كان للصاحب أسلوبه الخاص في التعامل مع



الظاهرتين كما رأينا، من خلال أنّه استثمرهما – في الأكثر – في مديح الامام علي (عليه السلام)، في الوقت الذي كانت فيه اللمحات الأُخر، من انتاج فكر الصاحب، وقريحته حصراً بحسب علمنا، والله تعالى أعلم.



الهوامش

1- ينظر: موسيقى الشعر/45.

2- ينظر: البناء الفني في شعر الهذليين (دراسة تحليلية) / 330-334.

3- ينظر :الحماسة في شعر الشريف الرضي/ 245.

4- خصائص الاسلوب في الشوقيات / 62.

5- ديوانه/ 187-188.

6- الحماسة في شعر الشريف الرضي/ 244.

7- ديوانه / 76.

8- م. ن/ 115-116، براة : يعني بها سورة براءة.

9- ينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية / 41.

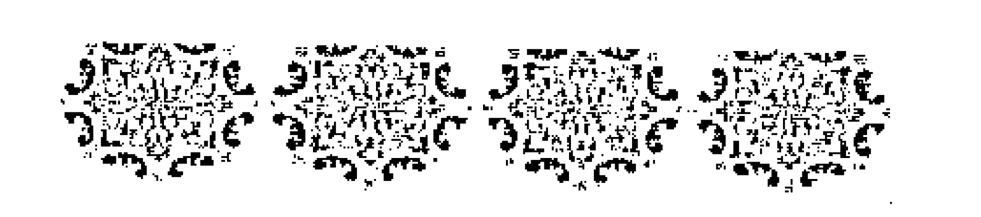
10- ينظر : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها / 207.

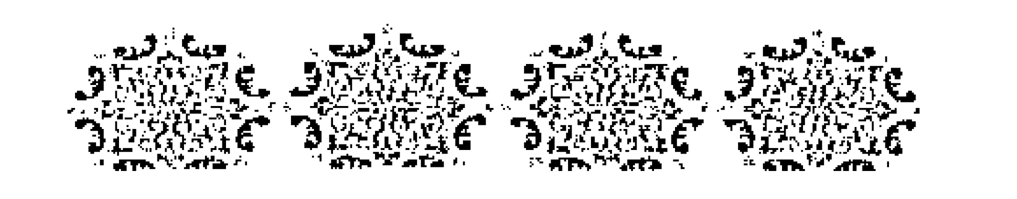
11- ديوانه / 132.

12- م. ن / 246.

13- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 74/2.

14- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب / 239.





15- ديوانه / 191.

16- ينظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 45/2.

17- ينظر : قضايا الشعر المعاصر / 243.

18- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري / 432.

19- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 2/ 76.

20- ديوانه / 65.

21- ينظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي / 71.

22- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 126/2.

23- ديوانه / 68-69.

24- ينظر : م.ن/ 68-71.

25- موسيقى الشعر / 8-9.

26- ديوانه / 107 – 110، غُرِفَتْ: قُطِعَتْ.

27- م.ن / 112.

28- م.ن / 141-142.

29- م.ن / 143-144.

30- م.ن / 100-101.







31- م. ن / 35.

32- م. ن / 62.

33- م. ن / 186.

34- ينظر على سبيل المثال : م. ن / 43، 68-69، 131.

35- ينظر : فن القصة / 118، والقصة والرواية / 54.

36- اسلوبية الحوار في القرآن الكريم/ 15.

37- ينظر : فن الكاتب المسرحي / 218.

38- ديوانه / 31-32.

39- م. ن / 32.

40- م. ن / 33.

41- م. ن / 38-39.

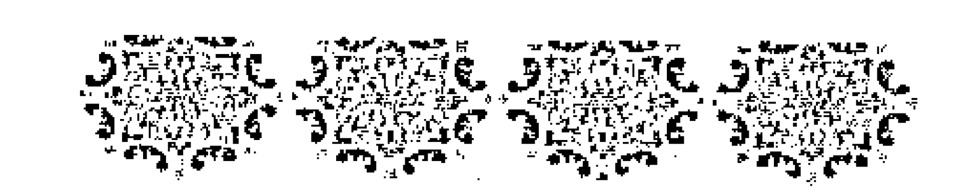
42- م. ن /39- 40.

43- م. ن / 41.

44- م. ن / 41-42.

45- م. ن / 42.

46- م. ن / 42-43.





47- ينظر : فن الأدب / 147.

48- الحوار في القصة والمسرحية والاذاعة والتليفزيون / 11.

49- ديوانه / 46.

50- م. ن / 47.

51- م. ن / 277-278.

52- م. ن / 205-207.

53- م. ن / 241-242.

54- م. ن / 50-53.

55- م. ن / 60.

56- م. ن / 147-148.

57- م. ن / 149.

58- م. ن / 151.

59- م. ن / 155-156.

60- م. ن / 158-159.

61- م. ن / 160-162.

62- م. ن / 165-166.

63- م. ن / 166-168.

64- م. ن / 168.

65- م. ن / 168-169.





المصادر والمراجع

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. محمد مصطفى هدّارة، مطابع دار المعارف بمصر، ط2، 1970م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 1404هـ-1984م.
- اسلوبية الحوار في القرآن الكريم، رسول حمود حسن حبيب الدوري، اطروحة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، 1415هـ-1995م.
- البناء الفني في شعر الهذليين (دراسة تحليلية)، اياد عبد المجيد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000م.
- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1980م.
- الحماسة في شعر الشريف الرضي، محمد جميل شلش، المكتبة العالمية، مطبعة وأوفسيت المشرق، بغداد، ط2، 1985.
- الحوار في القصة والمسرحية والاذاعة والتليفزيون،د. طه عبد الفتاح مقله، الناشر: مكتبة الشباب، دار الزيني للطباعة، 1975م.





- خصائص الأسلوب في الشوقيات، د. محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، 1981م.

- ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم، بيروت-لبنان، مكتبة النهضة – بغداد، ط2، 1394هـ-1974م.

- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة، بيروت-لبنان، 1963.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف : أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الازدي(ت 456هـ)، حققه وفصّله وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت-لبنان، ط4، 1972.

- فن الأدب، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية، الجماميز، 1952م.

- فن القصة، محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1955م.

- فن الكاتب المسرحي، للمسرح والإذاعة والتليفزيون والسينما، روجز.م بسفيلد، ترجمة : دريني خشبة، القاهرة، 1964.

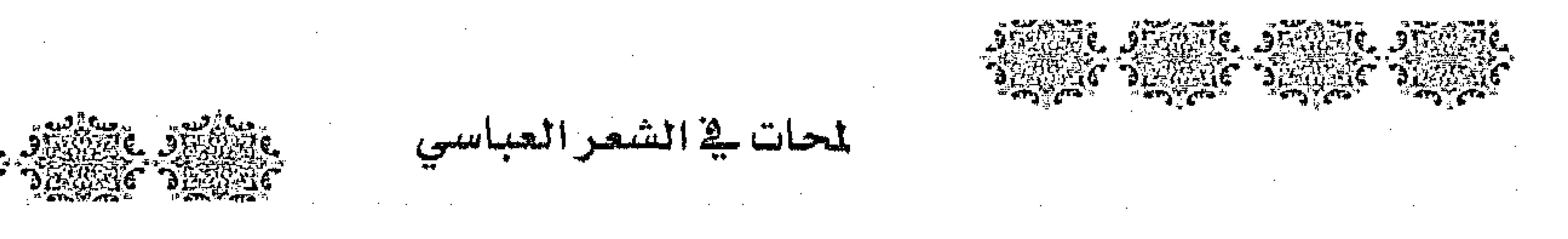
- القصة والرواية، د. عزيزة مريدن، دار الفكر، دمشق، 1400هـ - 1980م.

- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة النهضة – القاهرة، ط3، 1967.

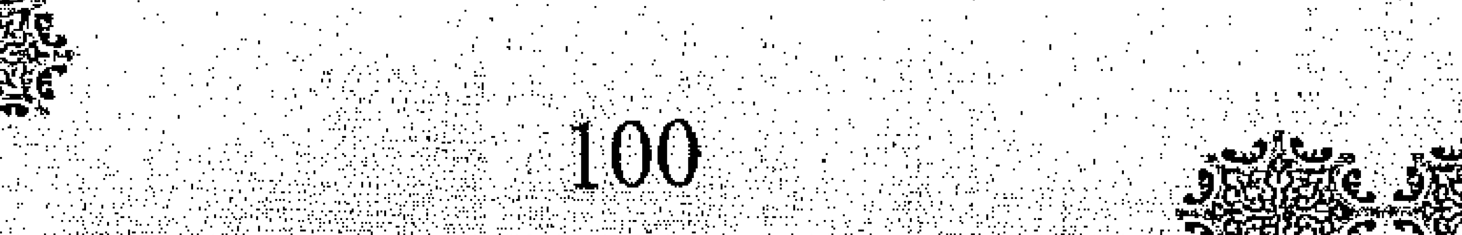
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، تأليف : د. عبد الله الطيب المجذوب، ج2، في الجرس اللفظي، ملتزم الطبع والنشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1374هـ - 1955م.

- موسيقى الشعر، د. ابراهيم أنيس، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1972م.

- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، وزارة الثقافة والاعلام، طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط3، 1987م.

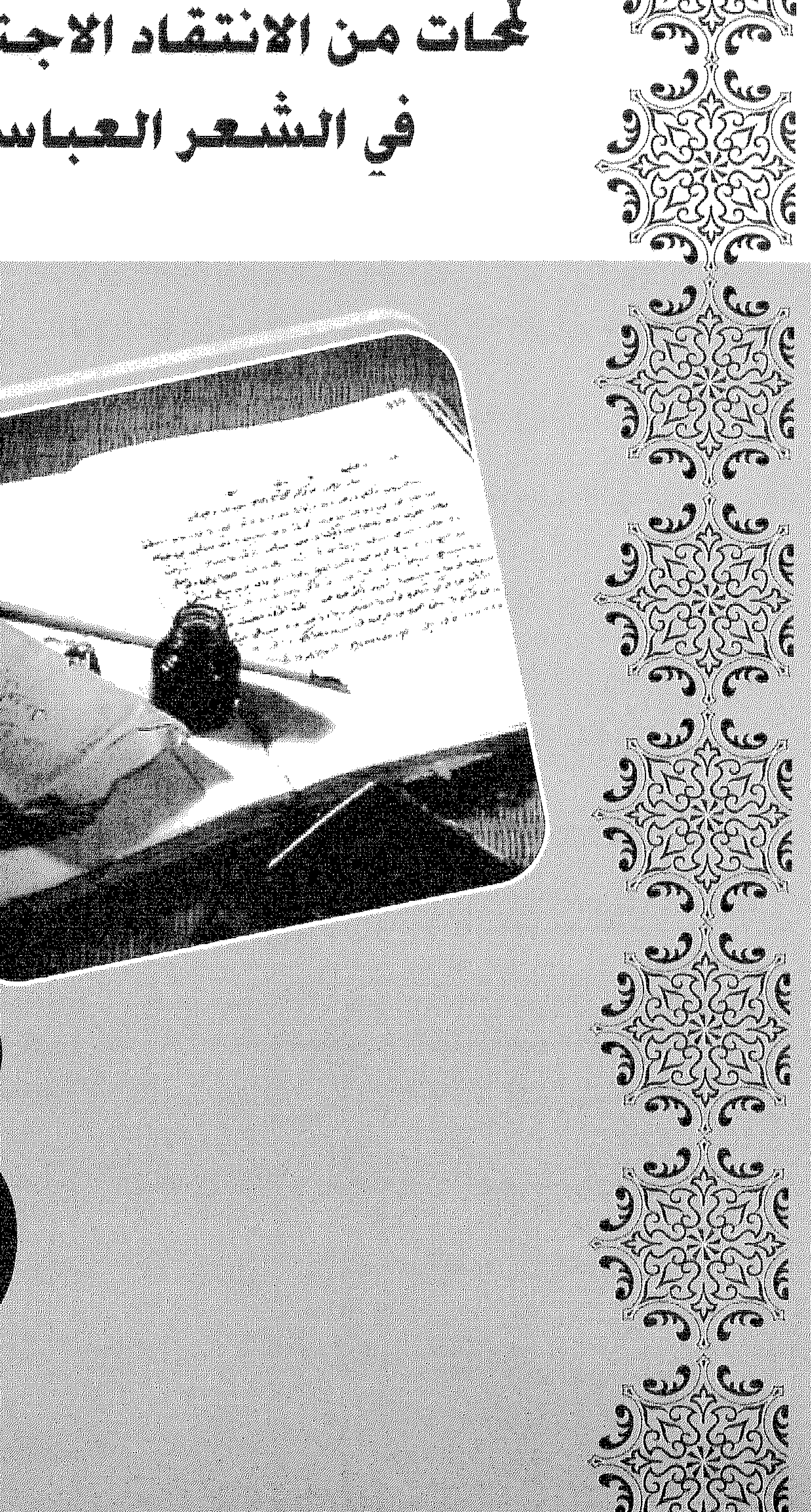







الفصل الثالث

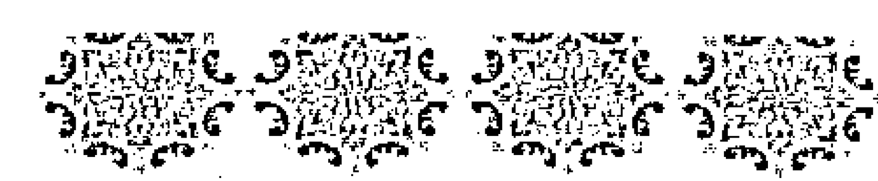
لمحات من الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي

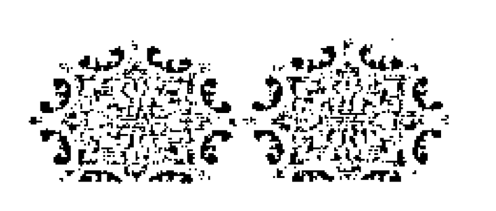


3









الفصل الثالث

لمحات من الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي

إنَّ الشعر بوصفه فنًّا، لابدّ أن يكون مرتبطاً بجمهور المتلقين، معبّراً عن القضايا التي تهمهم، ومصوّراً في الوقت عينه كلّ ما يدور في المجتمع من أفعال ايجابية أو سلبية، فالشعر ليس مدحاً أو رثاء أو غزلاًفحسب، بل هو مرآة تعكس الصور بوضوح فيما يتعلّق بالعصر الذي يعيش فيه من النواحي كافة، فالفن ((لبنة في الصرح الاجتماعي)) [1] كما يقال.

ولذلك وجدنا عدداً كبيراً من الشعراء العباسيين اتجهوا بجزء لابأس به من قصائدهم ومقطوعاتهم الى المجتمع، منتقدين إيّاه من بعض جوانبه السلبية، محاولين من وراء ذلك الانتقاد اصلاح ما يمكن اصلاحه، فليس ((الشاعر إلّا الناطق الفردي بما هو صوت جماعي قبل كلّ شيء)) [2]، فضلاً عن أن غايات الشعر يجب أن تكون في بعض جوانبها ((تبليغ التجربة الانسانية وتوصيلها)) [3].

وبالطبع فان مثل هذا اللون من الشعر سيؤثر في ذلك المجتمع، وأي مجتمع آخر الى يومنا هذا، لأن الشعر ((ينطوي على قيمة أخلاقية وجمالية [....]، ولذلك يمكن أن يستجيب له الناس ويؤثر في سلوكهم)) [4]، فاذا ما علمنا أن رسالة الشاعر للمتلقي هي ((حثّه على الوعي واليقظة والتفكير

وتزويده بما يثقف عقله ويدفعه الى ما ينمّيه ويرقّيه ليكون عضواً نافعاً في مجتمع حضاري)) [5]، أدركنا السرّ الذي من أجله انبرى الشعراء العباسيون في منجزهم الشعري لسلبيات مجتمعهم في ذلك الوقت، محاولين اضاءة بعض الزوايا المظلمة فيه، فالانسان، ولاسيما الشاعر، يعيش في مجتمع، ((وكونه كذلك غير قادر- بحكم واقع تكوين طبيعته – على أن يحتفظ بتجاربه وملاحظاته وأفكاره وعواطفه وخيالاته لنفسه، ولكنه على العكس واقع تحت رغبة ملحة لنقلها الى من حوله)) [6].

وكانت أكثر الانتقادات التي طرحها الشعراء العباسيون في أشعارهم، موجهة الى الناس، والتي عبّروا بها عن مواقف عامة، او شخصية، وسواء أكانت الانتقادات عبّرت عن ذلك الموقف، أو عن هذا، فانها عموماً، أشارت- بطريقة أو أخرى- الى رفض أصحابها، وأعني الشعراء العباسيين، ونبذهم لتلك الأمور السلبية في المجتمع، وتلك السلبيات حاول الشعراء من خلال طرحها الفات نظر الناس اليها لعلهم يعتبرون، ويتخلون عنها الى ما هو أسمى وأفضل لهم بشكل خاص، وللمجتمع كلّه بوجه عام، ولعلّ ذلك الاحساس الذي تولد لدى الشعراء العباسيين تجاه المجتمع، لم يصدر إلّا لأنهم يعدّون أنفسهم أصحاب قضية وموهبة، يستطيعون بوساطتها التغيير، ((وصاحب الموهبة يدفعه احساسه وشعوره [....] الى الانغمار في المجتمع والتفاعل معه، لأن رؤياه البعيدة الدقيقة، [....] تجعله يكشف المجهول ويحاول أن ينقل رؤياه الى

مجتمعه بالأداة التي وهبتها السماء له، فهو مصور عصره وشاهد عليه))[7]، فضلاً عن ((أن الجماعة لن تتأثر بالشعر إلّا إذا كان يعالج شيئا يمسّ حياتها. وليس من الضروري أن يمسّ الشعر حياة الجماعة بشكل مباشر، المهم أن يتصل بحياتهم بشكل أو بآخر، وإلّا ضعفت استجابة الجماعة))[8].

وبناء على هذا الأساس، لابدّ لنا من الاشارة الى أن عدداً غير قليل من النصوص الشعرية التي عددناها من النصوص المنتقدة للمجتمع؛ لم تكن تخاطب المتلقي مباشرة، أو تحاول نصحه وارشاده الى الخطأ الذي يرتكبه، ولكن على الرغم من ذلك فاننا نجد فيها محاولات لنشر الفضائل، والابتعاد عن نقيضها (الرذائل)، سواء أقصد الشعراء العباسيون ذلك أم لم يَدُر ذلك القصد في أفكارهم، وبذلك فهي – في نظرنا – لم تخلُ من التأثير الايجابي في المجتمع، حتى وإن لم يكن ذلك هو المقصود من خلالها.

أشرت آنفاً الى أن كثيراً من النصوص الشعرية التي انتقدت المجتمع، كانت موجهة الى الناس لأسباب مختلفة، فالعباس بن الأحنف مثلاً، يعالج في بيتين قضية سلبية مهمة، تعاني منها أكثر المجتمعات، وليس في مجتمع عصره فحسب، ألا وهي قضية الانسان الفقير، الذي لاينال احترام كثير من الناس، على الرغم من أننا نعيش في ظل الدين الاسلامي الرائع بمبادئه التي تنبذ مثل هكذا مواقف، فهو (أي الفقير) يرى نفسه مبغوضاً من لدن الناس لا لذنب





اقترفه، ويرى العداوة في عيونهم، ولايعرف السبب الذي يدعوهم لمعاملته بهذا الشكل، وذلك واضح في قول الشاعر:

يمشي الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضدُّه   والناسُ تُغلِقُ دُونَه أبوابَها

وتراهُ مَبغوضًا ليس بمُذنبٍ   ويرى العداوةَ لايرى أسبابها [9]

وعلى الرغم من أن العباس بن الأحنف لم يعطِ رأياً واضحاً لمعالجة هذه القضية، ولم يكتب وصفته الدوائية للتخلص من هذا المرض، إلّا أن إشارته الدقيقة تكفي لفهم مقصده الذي ألمح إليه، وربما كان تشخيصه دقيقاً من وراء النص الشعري الذي طرح فيه احدى سلبيات ذلك المجتمع، والتي مازال الفقراء يعانون منها الى يومنا هذا.

إن عدم رضا الناس عن الآخرين، واكثارهم من الكلام عليهم، كان احد الموضوعات المطروحة للانتقاد من لدن الشافعي، الذي بيّن في أحد نصوصه معاناة الطبقات المختلفة من الناس من أقوال الآخرين واتهاماتهم لهم، الى الدرجة التي تدعو الشاعر الى القطع بعدم سلامة أحد من تلك الأقوال غير المسؤولة، حتى وإن كان النبي (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، لذا فهم – لدى الشاعر- ينالون من الكل، فان كان المرء لايحب كثرة الكلام، اتهموه بالبكم، وإن كان خلاف ذلك، اتهموه بالهذر، وإن كان مصلياً صائماً، اتهموه بالمكر والرياء والكذب، ولذلك نراه يدعو الى عدم الاهتمام

بأقوال الآخرين، مادام الانسان واثقاً ممّا يفعله، ويجب ألّا يخشى إلّا اللّه، فهو الواحد المنّان كما يقول الشافعي:

وما أحدٌ من ألسن الناس سالماً ... ولو أنّ ذلك النبيُّ المطهّرُ

فإن كان سكّيتاً يقولون:أبكم ... وإن كان منطيقًا يقولون: أهذرُ

وإن كان صوّاماً وبالليل قائماً ... يقولون: زرّافٌ يُرائي وينكرُ

فلا تخشى [كذا] إلّا اللّه جلّ ... وهوَ الواحدُ المنّانُ، اللّهُ أكبرُ (10)

وردّد فحوى قول الشافعي، أبو العتاهية، الذي اختصر الحديث في بيت واحد، اتهم فيه الناس بالفساد، لأنهم ينكرون على الانسان المؤمن صلاته وصيامه، حتى انهم يتهمونه بالابتداع:

فَسَدَ النّاسُ وصاروا إنْ رَأَوا ... صالحاً في الدّين قالوا مُبْتَدِعْ (11)

ولأبي العتاهية نصّ آخر، يتحدّث فيه عن الناس الذين لايمتلكون أيّة مبادئ أو قيم في حياتهم، فهم لايعيشون في هذه الدّنيا إلّا من أجل تحقيق مصالحهم الخاصة بمعزل عن أي تقاليد ايجابية، فيعظّمون صاحبهم حين تكون لديهم مصلحة معه، حتى اذا ما انتهت انقلبوا عليه وتبدّلوا مع تبدّل الظروف الجيدة التي كان يحياها، أي أنهم لايهتمون إلّا بتحقيق المنفعة في علاقاتهم مع الآخرين، وذلك ما لم يحبّذه المجتمع أو العرف أو أبو العتاهية في قوله:

ما الناسُ إلّا مع الدنيا وصاحبها ... فكيفَ ما انقلبَتْ يوماً به انقَلَبُوا

يُعَظِّمُونَ أخا الدُّنيا وإنْ وَثَبَتْ ... يوماً عليه بما لا يشتهي وَثَبُوا



لايَحْلِبُـــونَ لِحَــــيٍّ دَرَّ لَقْحَتِـــهِ ... حتّى يكون لهُمْ صَفْوُ الذي حَلَبوا

وإنْ كان أبو العتاهية قد انتقد جانباً سلبياً واحداً في الناس، وهو المصالح التي تربطهم في علاقاتهم، فان أبا بكر بن دريد الأزدي انفرد بنص طويل انتقد فيه أموراً سلبية كثيرة في مجتمعه، ارتبطت بكثير من الناس، تلك الأمور التي بعثت به الى درجة عالية من التشاؤم، وعدم الثقة بهم، فهم لايرعون حقّاً لصاحب حق، والكلّ لديهم باطل، ويميلون الى الخلاف دوماً، ويرمون الخير بالظنّة، وبذلك لايسلم منهم أي انسان، فلا يتغافلون عن زلّة أحدهم، ولاينجو من أذاهم شخص:

أرى النـاسَ قد أُغْرُوا ببَغْي وريبـةٍ ... وغَـيٍّ إذا مـا مَيَّـزَ النـاسَ عاقـلُ

وقد لَزِمُوا معنى الخلاف فكلُّهم ... الى نحو ما عاب الخليقَةَ مـا ئلُ

إذا مـــا رَأَوْا خـــيراً رَمَـــوهُ بظنَّـــة ... وإنْ عـايَنُوا شـرًّا فكـلٌّ مُناضـلُ

ولـيس امـرؤٌ منهم بنـاج مـن الأذى ... ولا فـيهمُ عـن زَلَّـةٍ مُتغافِـلُ (13)

فهؤلاء الناس لايرعون حرمة لأحد، ولايقدرون صاحب علم أو أدب أبداً، ولا صاحب الدين، ولايحترمون الصامت ولا المتكلم، ولاصاحب الأصل ولا المجهول بين الناس، فالكل لديهم غير مرضيٍّ عنه، بما في ذلك صاحب المال والفقير، المبذّر والبخيل، والطمّاع والقنوع:

وإنْ عـايَنُوا صَـبْراً أديبـاً مهـذّباً ... حســيباً يقولــوا إنّــه لَمُخاتِــلُ

وإن كــان ذا ذهــنٍ رَمَـوْهُ ببِدْعَـةٍ ... وسمَّـــوه زنـــديقاً وفيـــه يُجَـــادَلُ

وإن كــان ذا ديــنٍ يُسَـمُّوهُ نَعْجَـةً ... ولــيس لــه عقـلٌ ولا فيــه طائِـلُ



وإن كان ذا صَمْتٍ يقولون صورةٌ	ممثَّلَـةٌ بـالعِيِّ بـل هـو جاهِـلُ
وإن كـان ذا شـرٌّ فويـلٌ لأُمِّـهِ	لِمَا عَنهُ يَحْكي مَنْ تَضُمُّ المحافِلُ
وإن كـان ذا أصْلٍ يقولـون إنّمـا	يُفـاخِرُ بـالموتى ومـا هـو زائِـلُ
وإن كـان مجهـولاً فـذلك عنـدهم	كـبيض رمـالٍ ليس يُعـرف عامـلُ
وإن كـان ذا مـالٍ يقولـون مالُـه	من السُّحْتِ قد رابى وبِئْسَ المآكلُ
وإن كـان ذا فقـرٍ فقـد ذلَّ بيـنهم	حقـيراً مهـيلاً تزدَريـهِ الأراذِلُ
وإن قَنَـعَ المسـكينُ قـالوا لقلـةٍ	وشِـحَّةِ نَفْسٍ قـد حَوَتها الأنامِـلُ
وإن هـو لم يقنَـعْ يقولـون إنّمـا	يُطالـبُ مَـنْ لم يُعْطِـهِ ويُقاتِـلُ
وإن يكتسـب مـالاً يقولـوا بهيمـةٌ	أتاهـا مـن المقـدور حَـظ ونائِـلُ
وإن جـادَ قـالوا مُسـرفٌ ومبـذّر	وإن لم يَجُدْ قالوا شحيحٌ وباخِلُ(14)

وهؤلاء الناس يرمون كل فعل بالغيبة والنفاق، سواء أكان ذلك الفعل سلبياً أم ايجابياً، فهم يتحدّثون بسوء على مَن يصاحب الغلمان، ويفعلون الشيء نفسه مع مَن يهوى النساء، ومع مَن يعفّ عن ذلك، حتّى أنهم لايعترفرن بتوبة أحدهم، ويتهمونه اتهامات باطلة، ويدّعون أن حجّه رياءٌ لا أكثر، وبذلك تتعدد سلبياتهم الى درجة تدفعهم الى الشماتة ممّن يمرض، بل حتّى ممّن يموت، ولذلك يُنهي الشاعر قصيدته بتقسيم الناس على فئات، فمنهم الجاحد والمعاند والحاسد، ويدعو الآخرين الى عدم الاهتمام بما يقول مثل هؤلاء الناس، لأن الاهتمام بأقوالهم والخشية والحذر منها لاطائل منه، لأن الكلام السيئ سيقع في الأحوال كلها:



وإنْ صاحبَ الغِلْمانَ قالوا لِريبةٍ وإنْ أجملوا في اللّفظ قالوا مَبَاذِلُ

وإنْ هَوَى النِّسْوانَ سَمُّوْهُ فاجِراً وإن عَفَّ قالوا ذاكَ خُنْثَى وباطِلُ

وإن تابَ قالوا لم يَتُبْ، منه عادةٌ ولكن لإفلاسٍ وما ثَمَّ حاصِلُ

وإن حَجَّ قالوا ليس للّهِ حَجُّهُ وذاك رياءٌ أنْتَجَتْهُ المحافِلُ

وإن كان بالشطرنج والنَّرْدِ لاعباً ولاعَبَ ذا الآدابِ قالوا مُداخِلُ

وإن كان في كلّ المذاهب نابزاً وكان خفيفَ الروح قالوا مُثاقِلُ

وإن كان مِغْراماً يقولون أهوج وإن كان ذا ثَبْتٍ يقولون باطِلُ

وإن يَعْتَلِلْ يوماً يقولوا، عُقُوبَةٌ لِشَرٍّ الذي يأتي وما هو فاعِلُ

وإن ماتَ قالوا لم يَمُتْ حَتْفَ أنفه لِمَا هو من شَرِّ المآكلِ آكِلُ

وما الناسُ إلّا جاحدٌ ومعاندٌ وذو حَسَدٍ قد بانَ فيه التخاذُلُ

فلا تَتْرُكَنْ حَقًّا لخيفةِ قائلٍ فإن الذي تَخْشَى وتَحْذَرُ حاصِلُ

وكان انتقاد المتنبي لمجتمعه ذا معنى خاص، فهو لاينتقد فيهم الأمور السلبية السابقة التي انتقدها فيهم مَن سبقه من الشعراء، وانما ينتقد فيهم سلبيات كانت تمثل لديه مشكلة كبيرة، انسجاماً مع التشتت السياسي الذي كان يعانيه المجتمع آنذاك، فقد كان الحكم للأقوى والأدهى من الرجال بغياب قوة الخليفة العباسي، لذا فهو (أي المتنبي) ينتقد الضعف والاستكانة والقبول بالعبيد والاعاجم حكاماً لهم، وكثيراً ما كان ذلك الانتقاد مختلطاً بشكوى الشاعر وألمه مما كان يراه ويعانيه، فالناس – في نظره- يحيون حياة لا معنى لها، فهم كالأموات لايحركون ساكناً، حتى انه

كان يتخوّف إنْ تزوّج سيصبح له نسل مثلهم، فرفض الزواج مخافة مثل ذلك النسل:

فِي النــاس أمثِلَــةٌ تــدورُ حياتُهــا كَمَماتِهــا ومَماتُهــا كَحَيَاتِهــا

هِبْتُ النِّكــاحَ حِذارَ نَسْلٍ مِثْلِهــا حتى وَفَرْتُ على النِّساءِ بَنَاتِهـا [16]

ويبدو أن ذلك الضعف في مجتمعه، فضلاً عن الجهل ودناءة النفوس، كانت الأسباب الرئيسة التي دفعت الشاعر الى تصغيرهم في قوله:

أذُمُّ الى هــذا الزمــانِ أُهَيْلَــهُ فــأعْلَمُهُمْ فَــدْمٌ وأحْــزَمُهُمْ وَغْــدُ

وأكْرمُهُمْ كَلْبٌ وأبصَرُهُمْ عَمٍ وأسهَدُهُمْ فَهْدٌ وأشجَعُهُمْ قِرْدُ [17]

لقد كان أكرم الناس في ذلك المجتمع – في نظر أبي الطيب- كالكلب في شراهته وبخله، وأيقظهم ينام كالفهد الذي يُضرب به المثل في كثرة النوم، وأشجعهم كان كالقرد في شدّة جبنه.

ومادام أولئك الناس بتلك الصفات السيئة، فمن الخطأ أن تسأل عنهم بـ (مَن) التي يُستَفْهَم بها عن العاقل، والأجدر أن تسأل عنهم بـ (ما) المخصّصة للاستفهام عن غير العاقل؛ لأنهم كالبهائم مع كلّ تلك الصفات التي يحملونها:

أفاضِلُ الناسِ أغراضٌ لِذا الزَّمَنِ يَخْلُو من الهَمِّ أخلاهُمْ مِن الفِطَنِ

وإنّمــا نحــن في جيــلٍ سَوَاســيَةٍ شَرٌّ على الحُرِّ من سُقْمٍ على بَدَنِ

حولي بكلِّ مَكانٍ مِنْهُمْ خِلَقٌ تُخْطِــي إذا جِئْــتَ في اســتفهامها

ولمّا كانوا كذلك، فلماذا لايمتطيهم المتنبي حينما يريد الذهاب لأحد ممدوحيه الكرام؟ فهم كالبهائم في جهلهم وضعفهم:

لو استْطعْتُ رَكِبْتُ الناسَ كُلَّهُمُ   الى سعيد بنِ عبد اللّهِ بُعْرَانا
فالعِيْسُ أعْقَلُ من قومٍ رأيتُهُمُ   عَمَّا يراهُ من الإحْسَانِ عُمْيَانا[19]

إنّ الصفات السلبية، وغير المقبولة، كانت كثيرة في ذلك العصر، كما هي الآن، وكانت صفتا النفاق والكذب من أشد ما يزعج الشريف الرضي، فقد تذمَّرَ منهما في بعض شعره، فالناس –عنده– مصرّون اصراراً كبيراً على التمسك بصفة النفاق، فضلاً عن الكذب القبيح، ممّا أدّى به الى تشبيههم بالكلاب التي تبصبص خوف الهوان، وتنبح بين يدي الغالب حسب تعبير الشاعر نفسه:

أبى الناسُ إلّا ذَمِيمَ النِّفاقِ   إذا جَرَّبُوا، أو قَبِيحَ الكَذِبْ
كِلَابٌ تُبَصْبِصُ خَوفَ الهَوَانِ،   وَتَنْبَحُ بينَ يَدَيْ مَنْ غَلَبْ[20]

ولعلّ أبا العلاء المعري كان واحداً من أكثر الشعراء العباسيين تصدّياً لسلبيات المجتمع، فكثيراً ما كان يتحدث منتقداً عن عيوب ذلك المجتمع المتمثّل بالناس الذين كانوا يعيشون فيه، ومن اهم انتقاداته هي انه كان يرى أنهم مولعون بذم الآخرين، لذا نراه ينصح بمجانبتهم كل ذي عقل؛ ليأمن سوء أفعالهم، ففي ذلك المعنى يقول:

وجانبِ الناسَ تأمَنْ سوءَ فعلهم   وأن تكون لدى الجلّاس ممقوتا

لابُدَّ مـن أن يـذمّوا كـلَّ مَـن ولـو أراهـم حصـا المعـزاءِ ياقوتـا [21]

ويرى أبو العلاء أن صفة النفاق متأصّلة في نفوس البشر، وبالتالي فان مَن يعاشرهم لايتأمل أنه سيسلم من نفاقهم ذلك؛ لأنهم لايتحدثون بصدق في اكثر الأحيان، إنْ لم تكن كلها :

مَن عاشرَ الناسَ لم يَعدِم نفاقَهُم فمـا يفوهـونَ مـن حـقٌ بتصـريحِ [22]

فهم وشاة وحاسدون، ولذلك يتأذى كلّ مَن يتّصل بهم، لأي سبب كان، وذلك واضح في قول الشاعر:

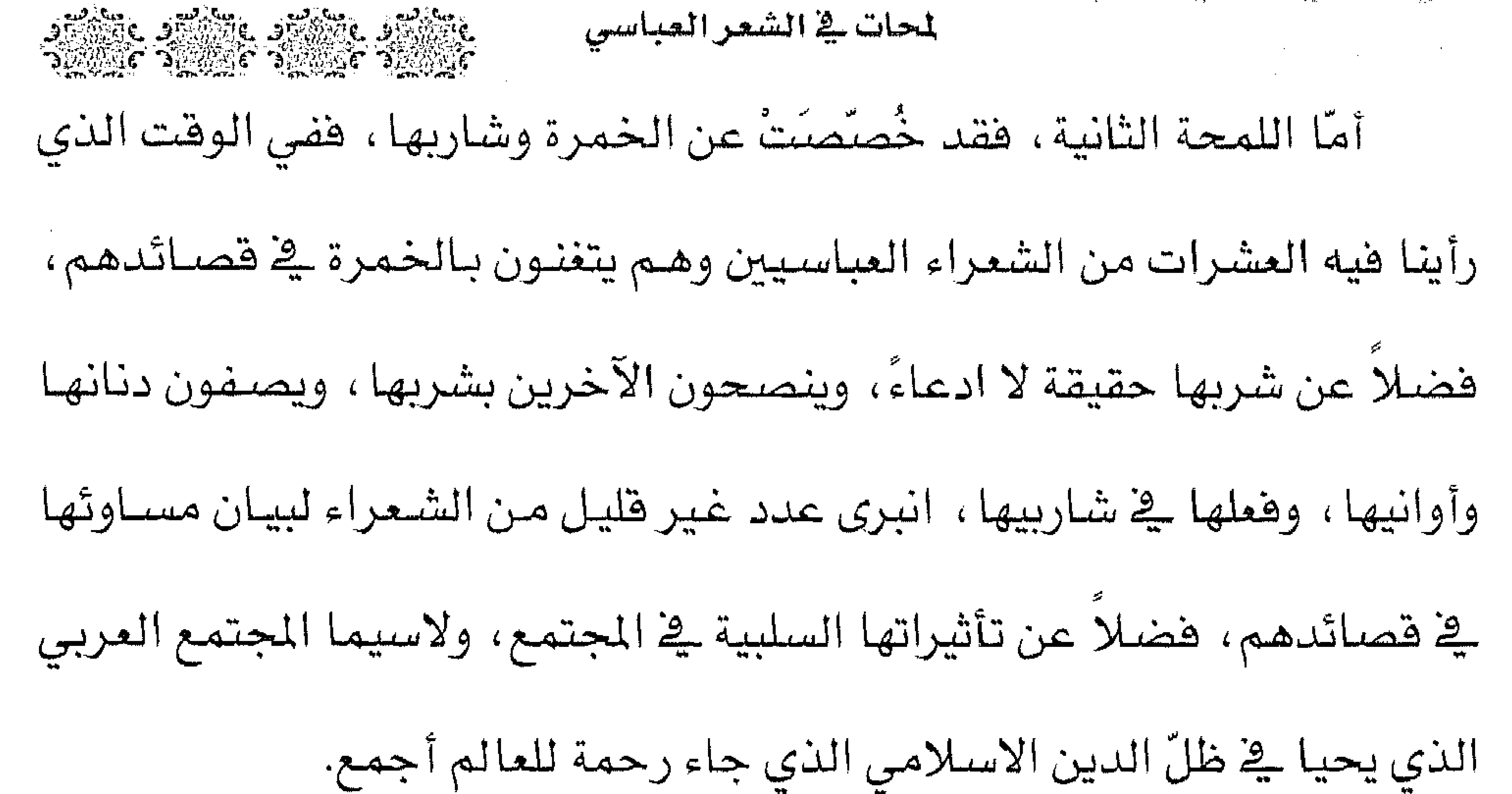
ومَنْ عاشَ بينَ الناسِ لم يخلُ من بمـا قـال واشٍ أو تكلَّمَ حاسِدُ [23]

وبما أن أبا العلاء كان واثقاً من ترسّخ صفة النفاق في نفوس الناس، فضلاً عن الغيبة، نراه يدعو الى اهمالهم، وعدم التأثّر فيما يقولون؛ لأنهم- على حدّ قوله- قد نطقوا بالكذب على اللّه جلَّ وعلا، فإنْ كانوا كذلك فلا غرابة من افترائهم على الآخرين:

إذا قـال فيـك النـاسُ مـا لاتحبُّـهُ فصـبراً يفـئ وُدُّ العـدوّ إليْكـا
وقد نطقوا مَيْناً على اللّهِ وافتروا فمـا لهـم لايفـترون عليكـا [24]

وهكذا تطرّقنا الى اللمحة الأولى من لمحات الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي، والتي كانت متخصصة بانتقاد الناس عموماً لأسباب مختلفة كما بيّنا آنفاً.





أمّا اللمحة الثانية، فقد خُصّصَتْ عن الخمرة وشاربها، ففي الوقت الذي رأينا فيه العشرات من الشعراء العباسيين وهم يتغنون بالخمرة في قصائدهم، فضلاً عن شربها حقيقة لا ادعاءً، وينصحون الآخرين بشربها، ويصفون دنانها وأوانيها، وفعلها في شاربيها، انبرى عدد غير قليل من الشعراء لبيان مساوئها في قصائدهم، فضلاً عن تأثيراتها السلبية في المجتمع، ولاسيما المجتمع العربي الذي يحيا في ظلّ الدين الاسلامي الذي جاء رحمة للعالم أجمع.

فعلى الرغم من تحريم الخمرة بالنص القرآني تدريجياً، إلّا أنّ الناس كانوا يُكثِرون من شربها، ولاسيما في العصر العباسي، بسبب عوامل اجتماعية كثيرة معروفة، قال تعالى: (يَسئَلُونَكَ عنِ الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيهِما إثمٌ كَبيرٌ وَمَنفِعُ للناسِ وإثمُهُما أكبَرُ من نَفْعِهِما))[25]، وقال تعالى (يأيُّها الذين ءَامَنُوا لاتقربُوا الصَّلَوةَ وأنتُم سُكرَى حتّى تَعلَمُوا ما تَقُولُون)[26]، وقال تعالى (يأيُّها الذين ءَامنُوا إنّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأنصَابُ والأزْلَمُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشَّيْطَنِ فاجتنبوه لَعَلَّكُم تُفلِحُون)[27]، والاجتناب هنا بمعنى التحريم.

ولذلك فإن الحديث الايجابي من لدن بعض الشعراء العباسيين عن تأثير الخمرة السلبي في شاربيها وفي المجتمع، لم يخرج في مضمونه عن نطاق الدين الاسلامي وتعليماته التي أراد بها الله سبحانه وتعالى انقاذ الناس من مخاطر الخمرة ومشكلاتها.



إنّ أهم الصفات السلبية لتأثير الخمرة في شاربيها هي إفشاء الأسرار، وذهاب العقل، وعقد اللسان، وثقل الأرجل، فضلاً عن الصداع والألم، وهذه السلبيات كلها أثبتها العتبي في قوله ناصحاً بترك شربها:

دَعِ النبيذ تكنْ عَدْلاً، وإنْ كَثُرَتْ ... فيكَ العُيُوبُ، وقُلْ ماشِئْتَ يُحتَمَلُ

هو المُشِيدُ بأسرارِ الرجالِ فما ... يَخْفَى على الناسِ ما قالوا ومافعلوا

كم زَلَّةٍ من كريم ظَلَّ يَسْتُرها ... من دونها سُتُرُ الأبوابِ والكِلَلُ

أضحَتْ كنار على عَلياءَ مُوقَدَةٍ ... ما يَسْتَسِرُّ لها سَهْلٌ ولا جَبَلُ

فاعجَبْ لِقَومٍ مُناهُمْ في عُقولِهم ... أن يُذهبوها بعَلٍّ بعَدهُ نَهَلُ

وقد عُقِّدَتْ لِخمارِ السُّكْرِ ألسُنُهُمْ ... عن الصَّوابِ ولمْ يُصْبحْ بها عِلَلُ

وزُرِّرَتْ بِسِناتِ النَّومِ أَعيُنُهُمْ ... كأنَّ أحداقَها حُولٌ وما حَولُوا

تخالُ رائحَهُمْ من بَعْدِ غُدْوَتِهِ ... حُبْلَى أضَرَّ بها في مَشْيها الحَبَلُ

فإنْ تَكَلَّمَ لمْ يقصِد بحاجتِهِ ... وإنْ مَشَى قلتَ: مجنونٌ به خَبَلُ[28]

وفي شرب الخمرة شرٌّ على شاربها؛ لأنها تُريه الغيَّ رشداً، وتجعله يتصوّر أنّ المحسنين قد أساءوا معه، وليس ذلك فحسب، بل تجعله يظنّ أن الصديقَ القريبَ مبغضٌ له، وأنّ مَن مدحه قد هجاه، ولذلك كله لايدوم لشاربيها أصدقاء ولا إخاء:

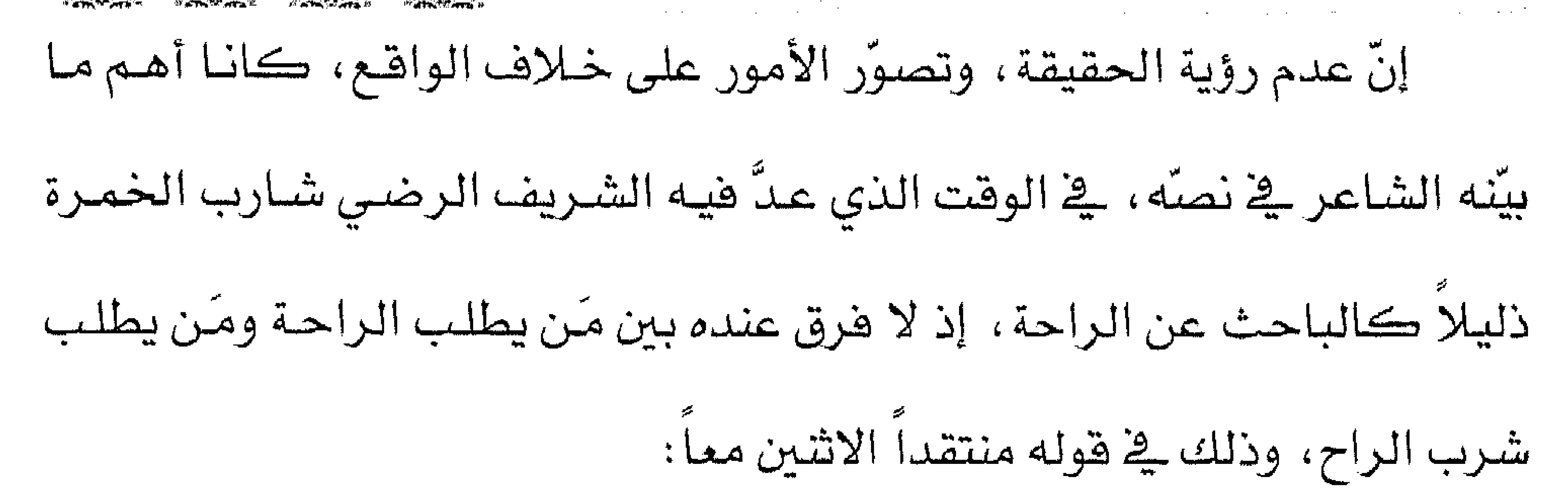
لَعمُركَ مايُحصَى على الكأسِ ... وإنْ كان فيها لَذَّةٌ ورَخاءُ

مِراراً تُريكَ الغَيَّ رُشداً، وتارةً ... تخيّلُ أنّ المحسنينَ أساءوا

وأنّ الصديقَ الماحضَ الودِّ مُبغِضٌ ... وأنّ مديحَ المادحينَ هجاءُ

وجرّبتُ إخوان النبيذ فقلّما ... يدومُ لإخوانِ النبيذ إخاءُ[29]





إنّ عدم رؤية الحقيقة، وتصوّر الأمور على خلاف الواقع، كانا أهم ما بيّنه الشاعر في نصّه، في الوقت الذي عدَّ فيه الشريف الرضي شارب الخمرة ذليلاً كالباحث عن الراحة، إذ لا فرق عنده بين مَن يطلب الراحة ومَن يطلب شرب الراح، وذلك في قوله منتقداً الاثنين معاً:

الـــرَّاحُ والرّاحَـــةُ ذُلُّ الفَتَـــى ... والعِزُّ في شُرْبِ ضَرِيبِ اللّقاحْ[30]

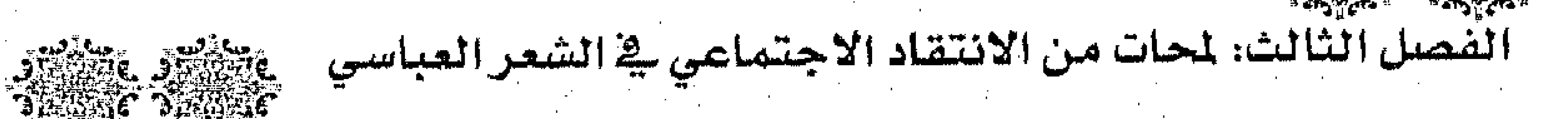
وكما أكثر أبو العلاء المعري من انتقاد الناس، وبيان سلبياتهم، فانه كان- أيضاً- من أكثر الشعراء العباسيين انتقاداً لشاربي الخمرة، إذ بَيَّنَ في كثير من منجزه الشعري المساوئ التي تقترن بشارب الخمرة، وتتصل به اتصالاً وثيقاً، ولاسبيل الى التخلص منها إلّا بترك شربها، وإبعاد الكأس عند يده.

وكانت السلبيات التي تحدّث عنها أبو العلاء، لاتخرج- في مضمونها – عن السلبيات التي تطرق إليها مَن سبقه من الشعراء، وعلى الرغم من ذلك كانت أفكاره ومضامين شعره فيها بعض الأصالة، ومن ذلك قوله مشيراً الى أنّ شارب الخمرة يعيد ما شربه بعد مدّة وجيزة عن طريق التقيؤ، فضلاً عن الاشارة والتصريح بالمساوئ الأُخر التي ذكرها سابقوه:

وأمّـا الخمـرُ فهـي تُزيـلُ عقـلاً ... فتحـتَ بـه مغـالقَ مُبهمـاتِ

ولـو ناجتـكَ أقـداحُ النّـدامى ... عـدَت عـن حملـها متنـدّماتِ

تُـذيعُ السِّـرَّ مـن حُـرٍّ وعَبـدٍ ... وتُعـربُ عـن كنـائزَ مُعْجمـاتِ



ويــنفضُ إلفهــا الراحــات حتــى | تعــود مــن النفــائس مُعــدماتِ
وزيّنـــت القبـــيحَ فباشـــرته | نفــوس كــنَّ عنــه مخزمــاتِ
ويشـــربها فيقلِســـها غـــويٌّ | لقـد شـامَ الخفـي مـن الشّـماتِ
ويرْفــعُ شــربها لغطــاً بجهــلٍ | كأســرابٍ وَرَدْنَ مُســدماتِ [31]

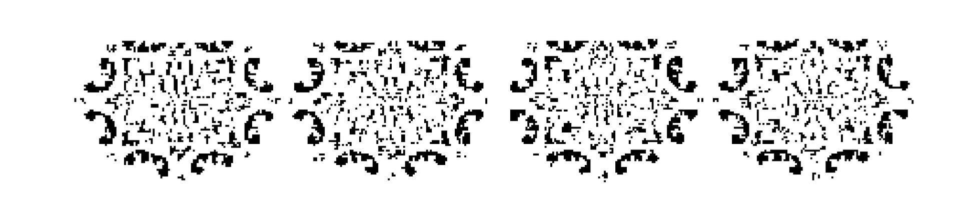
إنّ كشف الأسرار كان أسوأ ما يمرّ به شارب الخمرة، لذا فقد أكثر الشعراء العباسيون من الحديث عن هذه السلبية بالذات في قصائدهم ومقطوعاتهم التي انتقدوا فيها كلّ مَن يقوم بارتكاب هذا الفعل المحرّم، وكان أبو العلاء أحد الشعراء الذين اهتموا بهذه السلبية، إذ أكثر من الحديث عنها في شعره، كما في قوله:

ومـن شـرِّ أخـدانِ الفتـى أُمُّ زنبـقٍ | وتلك عجوزٌ أهلكت مَنْ تخادنُ
تُخبِـــرُ عـــن أســـراره قُرنـــاءَهُ | ومـن دونهـا قفْلٌ منيعٌ وسادنُ [32]

ويصبح أبو العلاء أكثر جرأة في حديثه عن مساوئ الخمرة، وذلك من خلال طلبه بالابتعاد عن شاربها ا، مشبّهاً إيّاه بالكلب الذي ولغ في الرجس، قائلاً:

عَدِّ عـن شـاربِ كـأسٍ أسـكرتْ | فهو مثلُ الكلبِ في الرّجسِ ولغْ [33]

وأشرنا سابقاً الى أنّ مضامين الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي، لم تخرج – في كثير منها- عن نطاق الدين الاسلامي وتعليماته، ولذلك تطرّق بعض الشعراء الى الحديث عن مساوئ الخمرة في شاربها فيما يتّصل بموقفه من الدين الاسلامي الذي حرّمها، ومن أولئك الشعراء أبو العلاء نفسه، فقد



أشار الى رحيل الدين عن الدار التي يتمّ فيها شرب الخمرة، منبّهاً الى عدم توفيق أصحابها الذين يشربونها مقترنة بالغناء الذي يحطّ – بدوره – من أقدارهم، وذلك كله يتبيّن من خلال قوله:

إذا دارت الكأسُ في دارهِمْ   فقد رحلَ الدّينُ عن دارهِمْ
فما وفّقُوا عندَ إيرادهمْ   ولا وفّقُوا عندَ إصدارهمْ
وفي رفع أصواتهم بالغناءِ   دليلٌ على حطّ أقدارهمْ[34]

ويصل الانتقاد الى أشدّ درجاته حين يشرب المرء الخمرة بعد ايمانه وتديّنه، ولاسيما إذا ما كان قد بلغ من العمر عتيّا، وذلك ما تطرّق اليه أسامة بن منقذ، واصفاً مَن يرتكب هذا الفعل بأنه قد أضاع دينه ودنياه في آن واحد، مشبّهاً إيّاه بالفخار المكسور الذي غدا عديم النفع، فضلاً عن عدم التمكن من ارجاعه الى أصله (الطين)، وذلك في قوله:

ياشاربَ الخمرِ بعدَ النُّسكِ والدّينِ   وبعدَ ما تابَ عمّا رابَ مُذجينِ
أفسدتَ دينكَ، والسبعونَ أفسدت   دُنيا، فلستَ بذي دُنيا ولا دينِ
وإنّما أنتَ فخّارٌ تكسَّرَ، لا   يُرجَى لنفعٍ، ولايُعتدُّ في الطينِ[35]

إنّ ما سبق بيانه يؤكد لنا وجود كمٍّ هائل من الشعراء العباسيين الذين وقفوا بوجه التيار الآخر، الذي حاول نشر الرذيلة والفجور، من خلال إشعال شرارتهما، وأعني الخمرة، التي كانت سبباً مباشراً وسريعاً لنشر المجون في العصر العباسي.



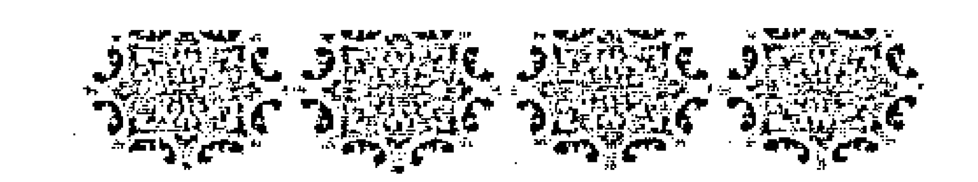
وبذلك حاول الشعراء الذين تحدّثوا عن مساوئ الخمرة، وتأثيراتها السلبية في شاربيها أن يبيّنوا الطريق الصحيحة لمَن ذهبت به الضلالة مذهباً عظيماً، وذلك من خلال اقناعهم بالأدلة والشواهد التي تؤكد صدق مايدّعونه، وأخيراً جعلهم يعدلون عمّا هم عليه من الغواية والرذيلة.

وكثرت مضامين الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي، كثرة تتفاوت بحسب أهمية الموضوع المطروح للانتقاد، فالبخل – مثلاً- ظاهرة مرذولة، ولايتقبّلها المجتمع، فضلاً عن عدم تقبّلها من لدن الاسلام نفسه، قال تعالى: ((ولاتَجعَل يَدكَ مَغْلُولَةً الى عُنُقِكَ))[36]، ولكنها في الوقت نفسه ظاهرة موجودة في مجتمع العصر العباسي، لذا تصدّى الشعراء العباسيون لها، منتقدين إيّاها، ومنتقدين أصحابها البخلاء، قاصدين من وراء ذلك الانتقاد تخليص الناس منها، عن طريق قسوتهم في تصوير البخل والبخلاء في أشعارهم كما سنرى.

وكان أهم ما انتقده الشعراء في البخل والبخلاء، هو ذهاب بعضهم الى الاعتقاد بابعاد الفقر عن طريق الحرص على الأموال وعدم تبذيرها، لذا فهم يعيشون في ضيق، مع تمكّنهم من العيش بعزٍّ وكرامة، وهم بذلك الاعتقاد كانوا فقراء فعلاً؛ بسبب عدم الافادة من الأموال التي يجمعونها، وخير مَن يصوّر هذا الشعور لدى البخلاء هو العتبي في هذين البيتين:

كم مانعٍ نفسَهُ لَذَّاتِها حذراً ... للفَقْرِ ليسَ له مِن مالِهِ ذُخُرُ
إنْ كان إمْساكُهُ لِلْفَقْرِ يَحْذَرُهُ ... فقد تَعَجَّلَ فَقْراً قبلَ يَفْتَقِرُ[37]







ولايخفى ما في هذه الرؤية الشعرية من سخرية بعيدة المرمى، التي نظن أن صاحبها أراد من خلف ألفاظها الدعوة الى نبذ هذه المعتقدات، من خلال جعل أصحابه مدار استهزائه فيما طرحه فيها.

وعلى الرغم من تقدّم الزمن، تبقى النظرة الساخرة من البخيل واعتقاده آنف الذكر، كما هي ولم تتغيّر، فأبو العلاء المعري يرى في الثراء فقراً لصاحبه إذا ما زاده حاجة، فيقول:

إذا زادَكَ المالُ افتقاراً وحاجةً — الى جامعيهِ فالثراءُ هو الفقرُ

ألَمْ تَرَ أنْ المُلكَ ليس بدائمٍ — على مُلكهِ إلَّا وعكسرهُ وقرُ[38]

ويبلغ الانتقاد ذروته حينما يعلن بعض الشعراء عن الانتفاع من الكلب، وعدم الانتفاع من البخيلِ، طالباً في الوقت نفسه تنزيه الكلب فيما لو أراد المشبِّه أنْ يُشبِّه البخيل به:

ما بالبخيل انتفاعٌ — والكلبُ ينفعُ أهلَهْ

فنزِّهِ الكلبَ عن أنْ — ترى أخا البخلِ مثلهْ[39]

وكان الأصدقاء غير الأوفياء في المجتمع العباسي ميداناً رحباً، جعل الشعراء العباسيين يُكثرون من انتقاداتهم لهم، غير أنّ ما يمكن أن نلحظه في انتقاد الأصدقاء من لدن الشعراء، هو صدوره عن تجارب خاصة بالشعراء أنفسهم، بمعنى أنّ ذلك الانتقاد لم يكن موجهاً الى الأصدقاء بشكل مطلق، بقدر توجيهه الى صديق بعينه، بسبب موقفه السلبي مع الشاعر، ومن ذلك أنّ

الصديق – مثلاً- يكون ملاطفاً لصديقه، حفيًّا به، شفيقاً عليه في أوقات الرخاء، ولكن ما إنْ ينقلب الزمن على صاحبه، ويرميه بشدائده، ينقلب معه ذلك الصديق القريب في السابق، فيصبح بعيداً جدًّا:

وصَديقٍ تَراهُ حُلْواً أنيقاً مُؤْنِساً مُلْطِفاً حَفِيًّا شَفيقا

ثم لمّا رَماني الدَّهْرُ بالغِلْظةِ منه، صارَ البَعيدَ السَّحيقا[40]

وممّا لاشكَّ فيه ان هذه الصفة غير محببة في الصديق الذي يفترض به الوفاء لصديقه في مختلف الأحوال والظروف، والأسوأ منها اغتياب الصديق صديقه في غيابه الى الدرجة التي يصبح فيها وحشاً كاسراً، وخالياً من أيّة شفقة عليه:

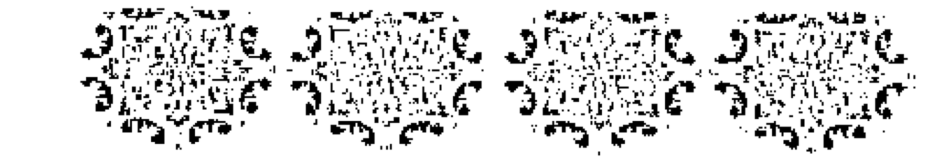
وصديقٍ لاعيبَ فيه إذا فُتِّشَ إلّا اغتيابُه للصَّديقِ

إنْ يلاحظْكَ فالشفيقُ وإنْ غِبْتَ فَسَبْعٌ عليكَ غيرُ شفيقِ [41]

وهذه الصورة لاتعبِّر إلّا عن مدى دناءة مثل هكذا أصدقاء، لأَنهم بمثل هذه السمة كانوا يخلعون أقنعتهم التي كانوا يضعونها على وجوههم الحقيقية، فيكشفون عن زيف صداقاتهم مع الآخرين.

ولاتخرج رؤية ابن المعتز – في مضمونها- عن رؤية الشاعرين اللذين سبقاه في كون اغتياب الصديق له في غيابه، في الوقت الذي يسجد له في حضوره بسبب ارتباطه معه بمصلحة ما:

لي صاحبٌ إنْ غِبتُ يأكُلني وإذا رآني في النَّديِّ سَجَدْ[42]



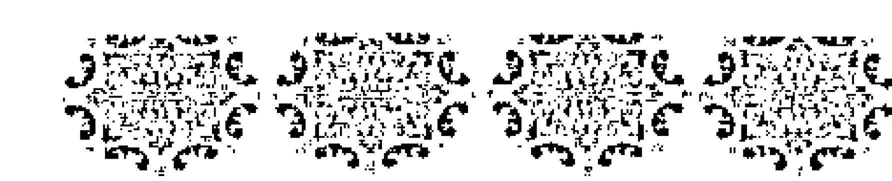
وبذلك نال الأصدقاء السلبيون حصّتهم من الانتقاد الاجتماعي الذي وجهه إليهم عدد من الشعراء العباسيين، في محاولة منهم لاجتثاث بعض الصفات السلبية فيهم، لتكوين علاقات صحيحة قائمة على الودّ المتبادل، والصدق في المشاعر، والاحترام بين أفراد المجتمع كافة.

ولم ينسَ بعض الشعراء العباسيين انتقاد الذين يقدّمون أنفسهم بوصفهم مصلحين للمجتمع، ولكنهم ينسون إصلاح أنفسهم، فهم يعلّمون الناس سلوك الطريق الصحيحة، في حين يسلكون هم الطرق الوعرة المليئة بالعيوب، وبذلك فهم يُبدونَ عيوب الآخرين وينتقدونها، ويغمضون أعينهم عن عيوبهم، لذا أصبحوا محطّة أخرى من محطّات الانتقاد الاجتماعي من لدن بعض الشعراء، كان أوّلهم الشافعي الذي عَبَّرَ عن تَعجّبه ممّن يبكي على عيب غيره- على صغره- ولايبكي على عيوبه، فيرى عيوب غيره، في الوقت الذي يعمى فيه عن عيوبه هو:

عَجبتُ لِمَن يبكي على عيبِ غيرهِ	**دُمُوعاً ولايبكي على عَيبِهِ دَمَا**
وأعجَبُ من هذا يرى عيبَ غَيرِهِ	**صغيراً وفي عَينَيهِ من عَيبهِ عَمَى**[43]

ويسخر محمد بن كناسة الأسدي ممّن يقوم بهذا العمل بشدّة، مشبّهاً إيّاه بمَن يحاول اكساء عورات الآخرين، في الوقت الذي تكون فيه عورته بادية لهم، فلا يحاول مواراتها عنهم:

ياواعظَ الناسِ: قد أصبحت مُتّهماً	**إذْ عبتَ منهم أُموراً أنت تأتيها**



كمَن كسا الناسَ من عُرْيٍ، للنّاسِ باديةٌ ما إنْ يُواريها[44]

إنّ محاولة نهي الآخرين عن بعض الأفعال المشينة شيء جميل، فهو يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شرط أن ينهي ذلك الناهي نفسه قبل غيره عن ارتكاب الأمور التي ينهى عنها نفسها، حتى تكون هناك مصداقية لأقواله وأفعاله على حدٍّ سواء؛ إذ ليس من المنطق أن يُطيعَ المأمور آمره أو ناصحه، في الوقت الذي يراه فيه مؤدياً لتلك السلبيات بنفسه، وبذلك يصبح الآمر أو الناهي قدوة سلبية في عيون الآخرين، ورمزاً رديئاً للواعظين.

ولذلك السبب نرى أبا العلاء المعري واصفاً مثل هؤلاء الناس بالاساءة من جهتين، لأنهم يعلّمون الناس ولايعلّمون أنفسهم، وذلك في معرض حديثه عمّن ينهى الآخرين عن شرب الخمرة، في حين يشربها هو صباحاً ومساءً، حتى انه قام برهن كسائه في شربها، يقول:

رُوَيدَكَ قد غُررتَ وأنتَ حرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساءَ

يحرِّمُ فيكمُ الصَّهباءَ صُبْحاً ويشربها على عمدٍ مساءَ

تحسّاها فمن مَزْجٍ وصرفٍ يَعُلُّ كأنّما وردَ الحساءَ

يقولُ لكم غدوتُ بلاكساءٍ وفي لذّاتها رهنَ الكساءَ

إذا فعلَ الفتى ما عنهُ يَنهى فمن جهتين لاجهةٍ أَساءَ[45]

وانفرد أبو العلاء المعري بانتقاده تارك الصلاة، وذلك حسب علمنا المتواضع بالشعر العباسي، فهو يعد تاركها غويًا؛ لأنه يشعر بأن الصلاة ثقيلة

عليه كثقل الهضاب، وذلك بسبب نقص أكيد في ايمانه، لذا فهو يعتقد بأن الصلاة ستقتله إذا ما باشر بادائها:

وترى الصلاة على الغويِّ ثقيلةً ... مثلَ الهضابِ تؤودُهُ ركعاتها[46]

وهو، أي أبو العلاء، يعدّ مثل هذا الغاوي أعجز انسان على وجه الكرة الأرضية، لأن مَن يعجز عن اداء خمسة فروض واجبة، لانتوقّع منه أعمالاً جديرة بالتقدير، فضلاً عن تركه ما يرتبط بعلاقته مع اللّه جلَّ وعلا، والآخرة:

وأعجزُ أهل هذي الأرض غاوٍ ... أبان العجزَ في خمسٍ فُرِضْنَهْ[47]

وكان المنجّمون، ومَن يعتقد بصدق أقوالهم، محطّات أُخر من محطّات الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي، إذ نصَّبَ بعض الشعراء أنفسهم لبيان الافتراءات الكاذبة التي يأتي بها مثل أولئك المنجمين من ناحية، ومن ناحية أخرى، السخرية التي صرّحوا بها أو ألمحوا إليها في أشعارهم ممّن يتّخذون من أقوالهم دستوراً يسيرون في هداه حسب اعتقادهم.

ومن أولئك الشعراء الصاحب بن عبّاد، الذي أبدى سخريته من بعضهم، منكراً أقوالهم الكاذبة، واضعاً أمله واعتقاده باللّه سبحانه وتعالى، فهو وحده الذي يرزق الانسان، ويدفع عنه البلاء:

خوَّفني منجِّمٌ أخو خَبَلْ ... تراجُعَ المرِّيخ في برج الحَمَلْ

فقلتُ: دعني من أباطيل الحيَلْ ... فالمشتري عندي سواءٌ وزحَلْ

أدفـعُ عنّـي كـلَّ آفـات الـدولْ بخـالقي ورازقـي عـزّ وجَـلّ [48]

غـير أنّ سـخرية أبـي العـلاء المعـري كانـت أشـدّ وقعـاً علـى المنجّمين والمقتنعين بهم في آن واحد، وذلك حين تحدث عن امرأة سألت أحد المنجّمين عن الزمن الذي سيحياه وليدها، فجاءت الحقيقة على خلاف ما ذكره لها، قائلاً:

سألتْ منجّمَها عن الطفلِ الذي في المهد كم هو عائش من دهرِهِ
فأجابها مائة ليأخذ دِرهماً وأتى الحِمامُ وليدَها في شهره [49]

إنّ توعية الناس وتبصرتهم بحقائق الأمور، كانت أهم ما في هذا الطرح الساخر، فالمنجّمون لايعلمون الغيب، ولاتهمهم إلّا مصالحهم الدنيوية، ولذلك تراهم يتلذّذون باللعب بمشاعر الآخرين المعتقدين بهم وبأساليبهم التي لاتنم إلّا عن الكذب والاحتيال.

وفضلاً عمّا تمَّ الحديث عنه من اللّمحات المنتقدة لبعض مظاهر المجتمع السلبية، فقد عثرنا على بعض النصوص المنفردة التي كانت تنتقد بعض السلبيات الأُخر في المجتمع، سنأتي على الحديث عنها فيما يأتي.

إنّ أوّل تلك النصوص كان يتحدّث- منتقداً- عن الذي يحجّ بيت اللّه بمال حرام، وبذلك يكون حجّه غير مقبول؛ بسبب الأصل الفاسد لماله، وفي ذلك يقول أبو الشمقمق:

إذا حججتَ بمالٍ أصلُهُ دَنسٌ فما حججتَ ولكن حَجَّتِ العِيْرُ



لايقبـلُ اللّـهُ إلّـا كُـلَّ طَيِّبَـةٍ ماكُلُّ مَنْ حَجَّ بيتَ اللّهِ مبرورُ (50)

وانتقد بعض الشعراء المرءَ الذي يُبدي اعجابه بنفسه، مع أنه يدرك نقصه، والأصل الذي يعود إليه في يوم من الأيام:

أرى المَـرْءَ تُعْجِبُـهُ نَفْسُـهُ فأعْجَـبُ والأمْـرُ عِنـدي عَجِيْـبُ
ومـا هُـوَ إلّـا علـى نَقْصِـهِ فيومـاً يَشِـبُّ ويومـاً يَشِـيبُ(51)

والعجب كل العجب، ليس ممّن تعجبه نفسه فحسب، وانّما ممّن يتبع هواه، فيباشر ملذّاته وشهواته غير ناظر في شيء آخر، وهو في هذه الحال يصبح عبداً ذليلاً لهواه، فاقداً لعقله الذي لو احتفظ به لما غدا كذلك:

مَـنْ كـان متّبِعـاً هـوا هُ فإنّـهُ لِهَـواهُ عَبْـدُ(52)

والانسان السيئ الذي لايبالي بعيبه عندما يظهره أمام الناس، هو أحق الناس كلهم بالعيب، من وجهة نظر بعض الشعراء، فهو لايُعير أقوال الناس أيّة أهمية:

أحَـقُّ النـاس كلِّهـمُ بعَيـبٍ مسـيءٌ لايُبـالي أن يُعابـا (53)

ومن الشعراء من انتقد الانسان المتعجّل في قضاء أموره، عادًّا إيّاه انساناً قليل الفهم، في الوقت الذي يبين فيه عاقبة الصبر المحمودة:

وعاقِبـةُ الصَّـبرِ محمـودةٌ ولكـنْ أخو الخُرْقِ مُستعجِلُ (54)

أما الذين كانوا يأكلون الثوم ويحضرون المجالس، فقد أصبحوا محوراً لانتقادهم من لدن ابن الرومي، الذي سخر من طريقتهم تلك، التي



لايراعون فيها الذوق، ولا الناس الذين يستكرهون رائحته، مما دعا الشاعر الى سَبِّهم واهانتهم في شعره، لعلهم يكونون عبرة لمن يعتبر:

تـرى الأفـدامَ يعتلفـون ثومـاً ... ويغْشَـون المجـالسَ كـالهمومِ

فَشَـهْمُ القـومِ مـأثورٌ بخمـرٍ ... وفـدمُ القـومِ مـأثومٌ بثـومِ

فـإن عيّـرتهُم بـالنتن قـالوا: ... كـذا نكَهـاتُ أفـواهِ القُـرومِ

فسـوءُ الفعـل يـردف سـوء قـولٍ ... ونـتنُ الثـوم يـردف نـتن لـومِ

أَلَـا قُبحـاً علـى قـبحٍ وسُـحقًا ... لهاتيـك المنـاظر والجسـومِ (55)

وكان الشعور بنشوة التملّق مدار انتقاد بعض الشعراء العباسيين، فحينما يفرح المرء بمدح أحدهم على صفة غير موجودة فيه، فان ذلك بمثابة الهجاء له، مما يدعو الى الضجر لا الى الفرح، بل من اللؤم أن يبتهج الانسان بقول لايمتلك صفته حقيقة:

إذا أثنـى علـيَّ المـرءُ يومـاً ... بخـيرٍ لـيسَ فيَّ فـذاك هـاجِ

وحقـيَ أنْ أُسـاءَ بمـا افـتراهُ ... فلـؤْمٌ مـن غريزتـي ابتهـاجي (56)

وعندما يعزم المرء على التوبة في عمر متأخر، عليه أَلّا يرجو الثواب على تلك التوبة من وجهة نظر بعض الشعراء، إذ كان يجدر به أن يعلن عن توبته في وقت مبكر، لاعندما تقترب منيته:

تنسَّكْتَ بعـدَ الأربعـين ضـرورةً ... ولم يبـقَ إلّـا أنْ تقـوم الصَّـوارخُ

فكيـف ترجِّـي أنْ تُثـابَ وإنّمـا ... يرى الناسُ فضلَ النسكِ والمرءُ شارخُ (57)



وانتقد أبو العلاء الذين كانوا يضفون صفات اللّه سبحانه وتعالى على الخلفاء العباسيين، فلم يرضَ عنهم في شعره، إذ يقول:

لم أرْضَ رأيَ ولاةِ قومٍ لقبوا ... ملكًا بمقتدرٍ وآخرَ قاهِرا
هذي صِفاتُ اللّهِ جَلَّ جلالُه ... فالحقْ بمَنْ هجرَ الغواةَ مُظاهِرا

وتضجَّرَ الشاعر نفسه من أصحاب النفوس الدنيئة، الذين لايهتمون سوى بملء بطونهم، حتى وإنْ كان ذلك على حساب كرامتهم، ويصبحون أذلّاء وغير مُحْتَرَمِين بسبب تلك الصفة المُهِينَة لصاحبها:

فبعداً لنفسٍ لاتزالُ ذليلةً ... لحبِّ شرابٍ أو لحبِّ طعامٍ [59]

أمّا الغيبة، فكانت ومازالت من أسوأ الصفات السلبية التي تعاني منها المجتمعات كافة، لذلك تصدّى لانتقادها وانتقاد مرتكبيها بعض الشعراء، معلنين عن سوء الحديث الذي ينقله شخص عن شخص:

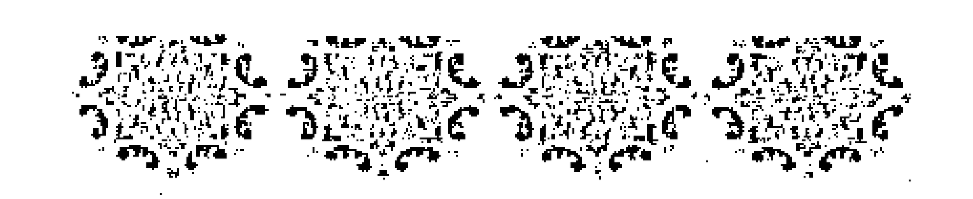
وأمْقُتُ كُلَّ مُغْتَابٍ نَمومٍ ... حَريصٍ بالنَّميمَةِ غَيرِ وَانِي
أَلَا بِئْسَ الحَديثُ حَديثُ زُورٍ ... يُبَلِّغُهُ فُلَانٌ عن فُلَانِ [60]

إنّ ما تمّ الحديث عنه من اللمحات المنتقدة للمجتمع في الشعر العباسي، عَكَسَ لنا وبصورة واضحة ودقيقة مدى الحرص الكبير الذي شعر به بعض الشعراء في ذلك العصر، واحساسهم بالمسؤولية- وإن كان ذلك عن طريق غير مباشر- لتغيير ما يمكن تغييره من الصفات السلبية، والملاحظ أنّ ما طرحه الشعراء في انتقاداتهم لم يخرج – في أكثره- عَمَّا جاء في ديننا الاسلامي، إذ



لم يتعارض ماطرحوه مع مبادئ هذا الدين، بل على العكس من ذلك، كان معزّزاً له، ومؤكداً في الوقت نفسه الالتزام بتلك المبادئ، في محاولة للعدول عن الأمور الرديئة، من خلال اقناع المتلقين بوساطة الاتيان بالشواهد والأدلة التي تؤكد صحّة مايذهبون إليه، وبذلك حاول هؤلاء الشعراء نشر الفضائل والابتعاد عن الرذائل، حتى وإنْ لم يقصدوا ذلك في بعض ماجاءوابه في أشعارهم.

وتميّزت النصوص الشعرية العباسية المنتقدة للمجتمع بميزة أخرى أضفت عليها ديمومة وحيوية، ألّا وهي عصريتها التي يشعر بها القارئ، وأعني بذلك أن مَن يقرأها بمعزل عن معرفة العصر الذي أُبدِعَتْ فيه، سيعتقد أنها نصوص قيلت في عصرنا هذا، وعالجت مشكلات مجتمعنا في الوقت الراهن، وفي ذلك ما يكسبها صفة الخلود والتواصل على مرِّ الأجيال.



الهوامش

1. قضايا الشعرية /19.
2. نقد النقد/42.
3. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه/11.
4. مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي/262.
5. الأديب والالتزام/50.
6. الأدب وفنونه دراسة ونقد/122-123.
7. الأديب والالتزام/100.
8. مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي/274.
9. ديوان العباس بن الأحنف/63.
10. شعر الشافعي /130-131، زراف: من الزرف: وهو الكذب، والأبيات منسوبة أيضاً للامام أبي بكر بن دريد الأزدي في ديوان شعره/ 68 مع بعض التغييرات.
11. أبو العتاهية أشعاره وأخباره /221.
12. م. ن /22.
13. ديوان شعر الإمام أبي بكر بن دريد الأزدي/ 99.





14. م.ن /99-100.

15. م. ن /100.

16. شرح ديوان المتنبي 357/1-358.

17. م. ن 92/3-93، الفدم: العيي في ثقل وقلة فهم.

18. م. ن 341/4.

19. م.ن 355/4-356.

20. ديوان الشريف الرضي 130/1.

21. اللزوميات 145/1، المعزاء: الأرض.

22. م.ن 200/1.

23. م. ن 210/1.

24. م. ن 159/2.

25. البقرة /219.

26. النساء /43.

27. المائدة/90.

28. شعر العتبي/ 78-79، الكلل: جمع كِلّة: ستر رقيق مثقب يتوقى به من البعوض وغيره، العلّ: الشرب الثاني، والنهل: الشرب الأول، عقد الرجلُ: كان في لسانه حُبسة وعُقدة، واللسان: احتبس،




الخمـار: مايصيب شارب الخمـر مـن ألمهـا وصـداعها. ومـا يخـالط الانسان من سُكر الخمر، السنات: جمع سنة: النعاس.

29. يزيد المهلبي/239.

30. ديوان الشريف الرضي 254/1، الضريب: ما حلب بعضه فوق بعض من عدة لقاح.

31. اللزوميات 158/1، يقلسها: يعيدها من بطنه، والشمات بكسر الشين: الخائبون المصابون ببلية، وبضم الشين: جمع شامت: وهو الذي يفرح بمصيبة غيره، مسدمات: هائجات.

32. م. ن 348/2، أم زنبق: الخمر.

33. م. ن 103/2.

34. م. ن 345/2.

35. ديوان أسامة بن منقذ /262.

36. الاسراء/ 29.

37. شعر العتبي/ 64.

38. اللزوميات 279/1، الوقر: بكسر الواو: الحمل الثقيل، وبفتح الواو: ثقل الأذن.

39. منصور بن اسماعيل الفقيه حياته وشعره/ 128.





40. ابراهيم بن المدبر /386.

41. أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته- شعره – رسائله/315-316.

42. شعر ابن المعتز 310/2.

43. شعر الشافعي/190.

44. محمد بن كناسة الأسدي، حياته، شعره، نصوص باقية من كتابه: الانواء/319.

45. اللزوميات 48/1، الحساء: اسم مكان ماء لبني فزارة بين الربذة والنخل.

46. م.ن 142/1.

47. م. ن 365/2.

48. ديوان الصاحب بن عباد /267.

49. اللزوميات 387/1.

50. أبو الشمقمق وما تبقى من شعره/137.

51. أبو العتاهية أشعاره وأخباره /37.

52. م.ن /118.

53. ابراهيم بن المدبر/350.

54. ديوان البحتري 1919/3.







55. ديوان ابن الرومي 1237/5.

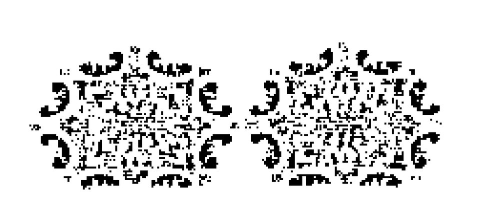
56. اللزوميات 187/1.

57. م. ن 204/1.

58. م.ن 345/1.

59. م.ن 316/2.

60. ديوان ابن أبي حصينة 263/1.



المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، خير المصادر وأكرمها.

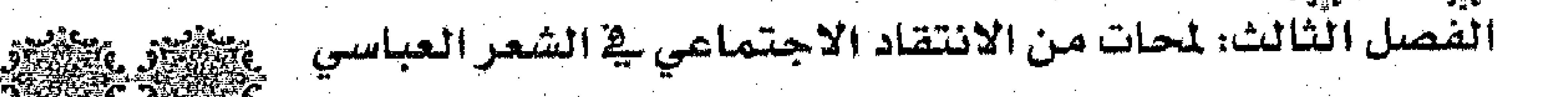
- ابراهيم بن المدبر، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1406هـ - 1986م.

- أبو الشمقمق وما تبقى من شعره، ضمن: شعراء عباسيون، دراسات ونصوص شعرية، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها: الدكتور محمد يوسف نجم، راجعها: الدكتور إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، مطبعة عيتاني، 1959.

- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، عُني بتحقيقها: الدكتور شكري فيصل، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تُنشَر من قبل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ - 1965م.

- أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته- شعره – رسائله، دراسة وتحقيق: هلال ناجي، ضمن: أربعة شعراء عباسيون، الدكتور نوري حمودي القيسي، الاستاذ هلال ناجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، ط1، 1994.

- الأدب وفنونه دراسة ونقد، الدكتور عز الدين اسماعيل، ملتزم الطبع والنشر: دار الفكر العربي، ط5، 1973.
- الأديب والالتزام، محمود الجومرد، مطبعة المعارف- بغداد، 1980.
- ديوان ابن أبي حصينة، الأمير أبي الفتح الحسن بن عبد الله المشهور بابن أبي حصينة السّلميّ المعري، سمعه وشرحه: أبو العلاء المعري، حققه: محمد أسعد طلس، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية بدمشق، 1375هـ - 1956م.
- ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق: الدكتور حسين نصّار، شارك في تحقيق هذا الجزء الخامس: وفاء محمود الأعصر، سيدة حامد عبد العال، محمد حسن أبو حسن، طبعة ثالثة منقّحة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، 1424هـ - 2003م.
- ديوان اسامة بن منقذ، حققه وقدّم له: الدكتور أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، د.ت.
- ديوان البحتري، عني بتحقيقه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، 1965.



- ديوان الشريف الرضي، دار صادر – بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1380هـ - 1961م.

- ديوان شعر الإمام أبي بكر بن دريد الأزدي، اعتنى بجمعه وتهذيبه وتحقيق ما فيه وتصحيحه ووضع فهارسه وتحرير مقدمة بتحقيقات رائقة: السيد محمد بدر الدين العلويّ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1365هـ - 1946م.

- ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم، بيروت- لبنان، مكتبة النهضة – بغداد، ط2، 1394هـ - 1974م.

- ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزجي، مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة، ط1، 1373هـ - 1954م.

- شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، 1357هـ - 1938م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].

- شعر ابن المعتز، صنعة: أبي بكر بن محمد بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة





الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة – بغداد، 1398هـ - 1978م.

- شعر الشافعي، الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي المتوفى في سنة 204هـ، جمع وتحقيق ودراسة: الدكتور مجاهد مصطفى بهجت [كذا]، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل، 1406هـ - 1986م.
- شعر العتبي، جمع وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي، منشور في مجلة كلية الآداب/جامعة بغداد، ع36، مطبعة التعليم العالي/ بغداد، 1410هـ - 1989م.
- الشعر كيف نفهمه ونتذوّقه، تأليف: اليزابيث دور، ترجمة: الدكتور محمد ابراهيم الشوش، منشورات مكتبة منيمنة – بيروت، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، مطبعة عيتاني الجديدة- بيروت، 1961.
- قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1988.



- اللزوميات، لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، أبي العلاء المعري، حققه وأشرف على طباعته: جماعة من الأخصائيين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1406هـ - 1986م.

- محمد بن كناسة الأسدي، حياته، شعره، نصوص باقية من كتابه: الأنواء، محمد قاسم مصطفى، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب/ جامعة الموصل، ع6، جمادي الاولى 1395 – حزيران 1975.

- مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، تأليف: الدكتور جابر أحمد عصفور، المركز العربي للثقافة والعلوم، طباعة. نشر. توزيع، 1982.

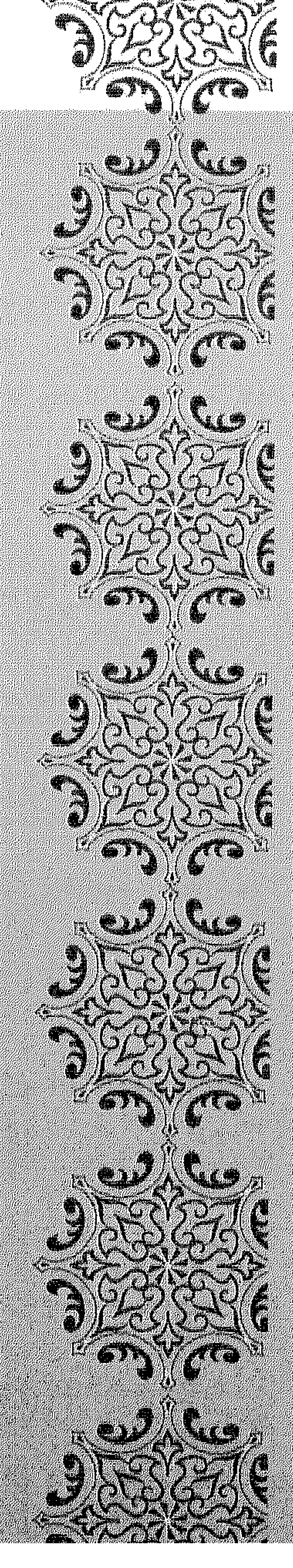
- منصور بن اسماعيل الفقيه حياته وشعره، الدكتور عبد المحسن فرّاج القحطاني، دار القلم، بيروت- لبنان، ط2، 1402هـ - 1981م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].

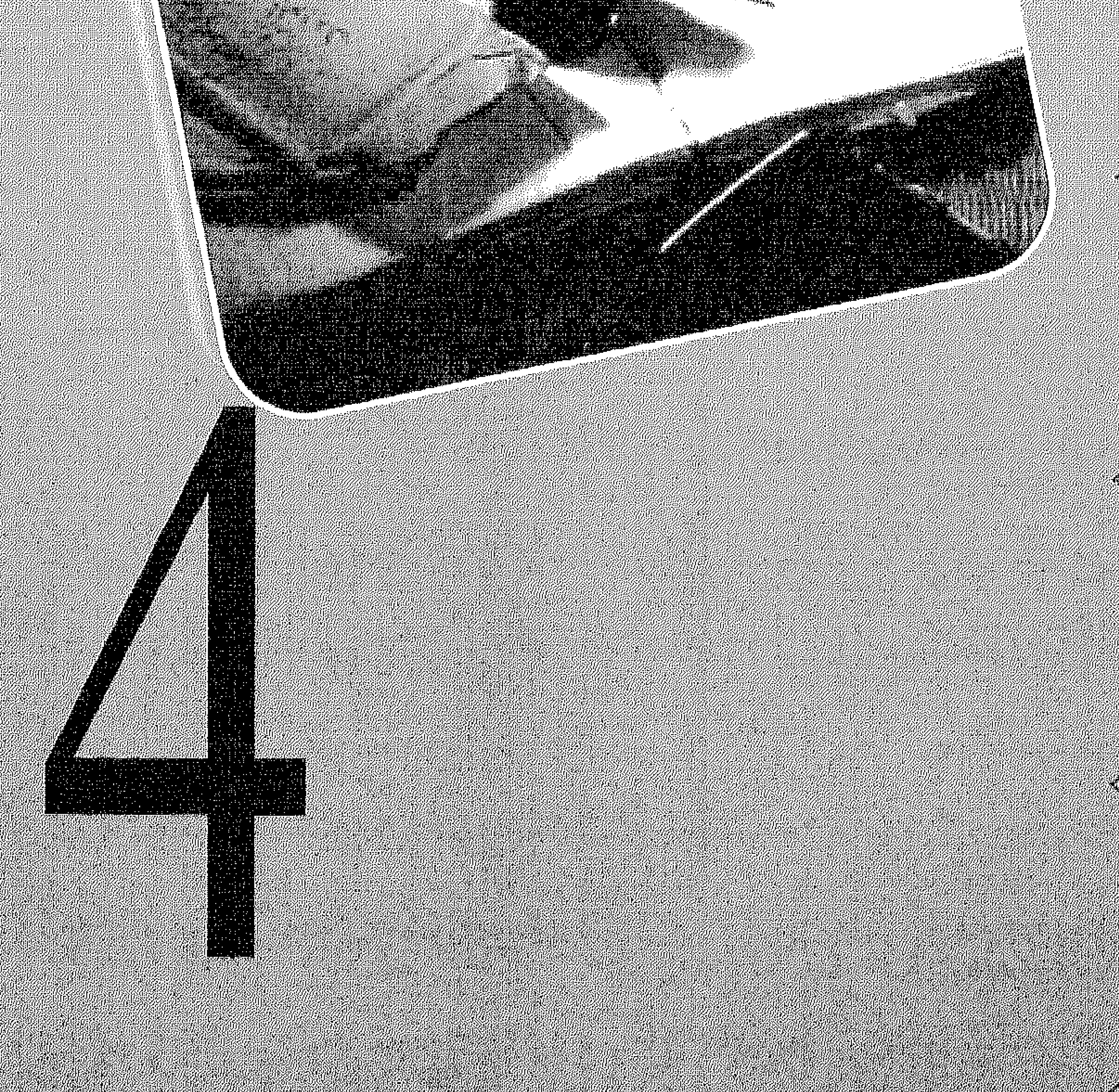
- نقد النقد، تزفيتان تودوروف، ترجمة: الدكتور سامي سويدان، منشورات مركز الانماء القومي – بيروت، ط1، 1986.

- يزيد المهلبي، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1406هـ - 1986م.

الفصل الرابع

لمحات من وصف الربيع في الشعر العباسي



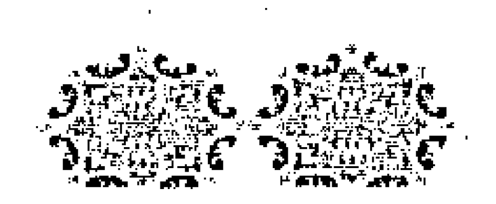


4









الفصل الرابع

لمحات من وصف الربيع في الشعر العباسي

لا يخفى ما للربيع – بجمال ازهاره، وتنوع الوانها، واخضرار اشجاره، وطعم ثماره المختلفة – من اثر ايجابي في نفوس الناس جميعاً، كل بحسب درجة حساسيته او شعوره بما حوله من جمال الطبيعة الساحرة، ولاسيما في هذا الفصل، فللطبيعة ((سحر يفوق كل سحر، ولها سلطانها على الانسان، وقدرتها على تحرير ذاته من قيود الحياة))[1] لذا فليس من الغريب ان نجد كثيراً من الشعراء العباسيين وهم يبدعون في وصف هذا الفصل من السنة، ويفضلونه على الفصول الأُخر، بما رسمته كلماتهم من الوان زاهية، تجعلنا على مرأى من المناظر التي اولعوا بها، وعشقوها من دون اية مغالاة، فالطبيعة ((هي عود الثقاب الذي يشعل الروح الشاعرة، ويدفع بالينبوع الكائن في اعماق النفس الى التفجر والتدفق والانطلاق، وبقدر ائتلاف الشعر مع الطبيعة، وبقدر اتصاله الروحي بموجودات هذا العالم، يكون حظه من التعرف على اسرارها، ويكون نصيبه من المتعة الروحية)) [2].

لذلك سنحاول في هذا البحث رصد ابرز ما صوره لنا الشعراء العباسيون، من خلال اعجابهم بما يحتويه فصل الربيع، ذلك الاعجاب الذي دفعهم الى رسم اجمل الصور الملونة بالالوان الزاهية المتعددة، واول ما يلقانا في قصائدهم التي تغنت بجمال الربيع هو انهم كانوا لا يستطيعون اخفاء فرحهم



واستبشارهم بقدوم الربيع، فكثيراً ما كانت قصائدهم متضمنة الفاظ السعادة التي تغمرهم، والتي تؤدي في نهاية المطاف الى الاعلان عنها في اشعارهم الربيعية إنْ صَحَّ القول.

إنَّ لفظة السعادة كانت اول لفظة طرحها الحمدوي في شعره، حين تناول جانباً حيوياً ومهما من جوانب فصل الربيع المتعددة، إذ رأى هذا الشاعر أن المطر الذي سقى الرياض جعل الناس جميعاً سعداء، وذلك لما تزدهر به تلك الرياض بالوان النباتات والازهار، يقول:

روضٌ افادته السحابُ صنائعاً اضحى بها كُلُّ البلادِ سعيدا (3)

أمّا ابن الرومي، فهو يرى أنَّ الدنيا في الربيع، أصبحت تروق الناظر اليها، ففي رؤية الوان الورد الطبيعية، وتنوع اشكاله، جلاء للبصر، كما في قوله:

اصبحت الدنيا تروقُ مَن نَظَرْ بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبَصَرْ (4)

ولان الربيع يمتاز بكثرة امطاره التي تزدهر بها المزروعات في مثل هذا الوقت من السنة، يرى الشاعر كشاجم انه بذلك المطر المفيد يكون الربيع مثل من يهدي السرور الى الناس عامة، وذلك في قوله:

حَيٍّ الربيعَ تَحيَّةَ المُستقبلِ أهدى السُّرُورَ لنا بغيثٍ مُسْبَلِ (5)

وحين يقدم فصل الربيع، فان البهجة تأتي معه، كما تبتسم الرياض، في كناية لطيفة عن تفتّح الازهار والانوار لدى ابن وكيع التنيسي في قوله:

اسْفَرَ عن بَهجتِهِ الدَّهْرُ الاغرْ وابتسَمَ الرَّوضُ لنا عن الزَّهرْ (6)

اذن، كانت الفاظ الفرح والسعادة والبهجة والاستبشار (7)، من الامور المهمة التي تناولتها خواطر الشعراء العباسيين، بوصفها ادلة على فضل هذا الفصل من دون سائر الفصول الأُخر، هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى، عبّرت



عمّا بدواخلهم من الفرحة الغامرة التي دعت بعضهم الى وصف الربيع في مقدمات قصائدهم المدحية، بوصفه رمزاً لازدهار الحياة في زمن الممدوح [8].

ان ما سبق ذكره، كان مقدمة تمهيدية للشعراء العباسيين، ودافعاً حيوياً دفعهم بقوة الى الترحيب بفصل الربيع في قصائدهم، لاسباب سنأتي على ذكرها تباعاً، فكثيراً ما كانوا يعبرون عن ترحيبهم به في مقدمات قصائدهم، التي يصفون فيها فعله بالطبيعة، مما يؤدي الى سعادتهم – كما الجميع – بتلك الافعال، فمن ابيات الترحيب ما جاء به الحمدوي في قوله:

حــيٌّ الربيــعَ فقــد اتــاكَ حميــدا   بــدلت مــن خلقِ الزمـان جديـدا [9]

فضلاً عن بيت الشاعر كشاجم، الذي سبق ذكره، في قوله:

حَــيِّ الربيــعَ تحيَّــةَ المُســتقبلِ   اهْدَى السُّرُورَ لنا بغيثٍ مسْبَلِ [10]

ان الترحيب بالربيع لم يكن مجرد كلمات ينطقها الشعراء من دون وعي او ادراك لما يقولون، أو من دون أسباب مهمة وقوية ترغمهم على ذلك الفعل، أو فلنقل: تجعلهم يرحبون به وهم في غاية السرور، ولعلّ من اهم تلك الاسباب، هي ما يقدم من الامطار مع قدوم الربيع، وبما ان الامطار هي السبب الرئيس لازدهار النباتات بصنوفها المختلفة، كان من الضروري ان تتقدم في قصائد الشعراء على غيرها من الاسباب التي سنذكرها فيما بعد، والتي دعتهم الى الترحيب بالربيع.

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن اهمية الامطار في فصل الربيع، وابان عن تاثيرها في الزرع، الحمدوي، الذي رأى انه بفضل المطر ابتلت التربة، واصبحت الرياض منتعشة، مما ادى الى نمو المحاصيل الزراعية، التي يفرح الناس بها، كونها مصدر غذائهم، فضلاً عن النباتات الجميلة، والازهار الملونة، التي تُسعد الانسان حين النظر اليها:

خلق السحاب على الثرى وشياً ترى   منــه الثــرى ذا ثــروةٍ محســودا



روضٌ افادتــهُ الســحابُ صــنائعاً   اضـحى بهـا كـلُّ الـبلادِ سـعيدا

نشــأتْ ســحابتُهُ عليــه فانشــأتْ   نَــوْراً تــراهُ ناشــئاً ووليــدا[11]

في حين ابان كشاجم عن كثرة الامطار في فصل الربيع، والتي بشّرت بالخصب وازدهار الزرع، بعد ان أُصِيبَتْ الارض بالجدب، وموت النباتات، يقول:

مُتكــاثِفُ الانــواءِ مُنْغَــدِقُ الحَيَــا   هَطِلِ النَدى[كذا] هَـزِمِ الرُّعـودِ

جَـاءَتْ بعَـزْلِ الجَـدْبِ فيـه فَبَشَّـرَتْ   بالخِصْبِ أنواءُ السِّمَاكِ الاعْزَلِ[12]

وبالامطار تزدهر الرياض، وتتوشح بضروب النباتات المختلفة، التي تبهر كل من ينظر لها، حتى ان الارض تُشبّه بزيّ العروس اثناء تساقط قطرات المطر عليها، وذلك في قول ابن وكيع التنيسي:

ابــدى لنــا فصــلُ الرَّبيــعِ مَنْظــراً   بمثلِــه تُفْــتَنُ ألبــابُ البَشَــرْ

وشــياً ولكِــنْ حَاكَــهُ صــانِعُهُ   لا لابتِـذالِ اللُّـبْسِ لكِـنْ للنَّظَـرْ

عايَنَــهُ طَــرْفُ السَّــماءِ فــانثنى   عِشْقاً لـهُ يبكـي بأجفَـانِ المَطَـرْ

فــالأرضُ في زِيِّ عَــرُوسٍ فَوقَهــا   مـن أدْمُـعِ القَطْـرِ نِثـارٌ مِـن دُرَرْ[13]

اما عن الأسباب الأُخر، التي دعت الشعراء العباسيين الى التغني بفصل الربيع، والترحيب به، وتفضيله على ما سواه من الفصول، فقد كانت كثيرة كثرة الشعراء في العصر العباسي، لذا سنحاول الحديث عنها بحسب التسلسل الزمني للشعراء الذين كشفوا عن اسرارها، وابانوا عن مكنوناتها.

فابو تمام مثلاً، يرى ان اجمل ما في فصل الربيع هو تمايل نباتاته فوق التراب بفعل الرياح، مما يبعث على سعادة الرائي لمثل ذلك المنظر، يقول:

رَقَّتْ حَوَاشِـي الـدَّهْرِ فهـي تَمَرْمَـرُ   وغَـدا الثَّرَى في حَلْيِهِ يَتَكَسَّـرُ[14]





ولذلك كان الشاعر يعتقد بانه لو دام حسن الرياض، بما فيها من تعدد الازهار والالوان، دامت البهجة عبر الايام، ولم تسلب من اصحابها، وهو لا يكتفي بالتعبير عن قناعته تلك، وانما يتحدث مع المتلقين، لتاكيد وجهات نظره، من خلال الادلة العقلية والمنطقية التي كان كثيراً ما يضفيها على شعره، فيرى أنَ حُسنَ الارض في تغييرها وعدم استقرارها على حال واحدة، ويريد تغييرها عن طريق جمال طبيعتها في الربيع، خلافاً للامور الأُخر، التي تَسْمُجُ حين التغيير على حدِّ قوله:

لَو انَّ حُسْنَ الرَّوضِ كان يُعَمَّرُ ... ما كانتِ الأيّامُ تُسْلَبُ بهْجَةً

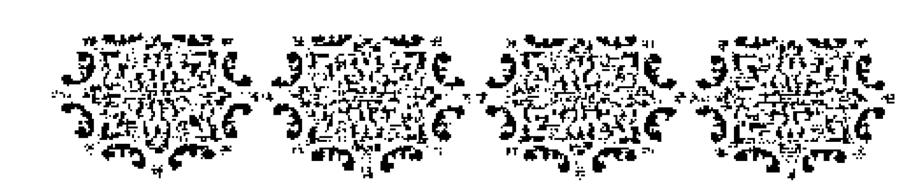
أوَ لا ترى الاشياءَ إنْ هِيَ غُيِّرتْ ... سَمُجَتْ وحُسْنُ الأرضِ حينَ

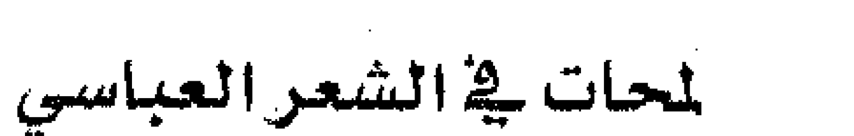
ثم يدعو صاحبيه لينظرا الارض في هذا الفصل، وكيف انها تَتَصوّر وتزدهر بالوان الورد المختلفة، وجمال الطبيعة الذي ينتج من خلال تلك الالوان الزاهية، وكيف يخالط بياضُ الزهر بياضَ النهارِ، ويتغلب عليه، فيبدو نهاره وكأنما هو مقمر لا مشمس:

يا صَاحِبَيَّ تَقَصّيا نَظَرَيْكُما ... تَرَيا وُجُوهَ الأرضِ كيفَ تَصَوَّرُ

تَرَيا نَهاراً مُشْمِساً قدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبا فكأنّما هو مُقْمِرُ(16)

ويتحدث الشاعر فيما تبقى من مقدمة قصيدته التي خصّصها لوصف الربيع، قبل الدخول في مديح المعتصم، عن خلق الله (سبحانه وتعالى) للدنيا، وجعلها مصدر رزق للناس، عن طريق ما يخرج من ارضها، ولاسيما في فصل الربيع، الذي يعدّ المُبَشِّر الاساس لما سيأتي من القوت، ثم ان الماء الذي يكون في باطن الارض، هو سبب نشوء انوار الازهار، وتكوين الثمار، فتزدهر به الاشجار، التي تكون بدورها ظاهرة حيناً، ومتخفية حيناً آخر، بسبب تكاثف النباتات حولها، لذا يشبهها الشاعر بامرأة عذراء تبدو مرّة، وتختفي






اخرى، ثم يتواصل في وصف الاشجار والازهار المختلفة، متحدثاً عن الوانها الجميلة، وتاثيرها من النفوس:

دُنيا مَعاشٌ للورَى حتَّى إذا ... جُلِيَ الربيعُ فإنّما هيَ مَنْظَرُ
أضْحَتْ تَصُوغُ بُطونُها لِظُهُورها ... نَوْراً تكادُ لَهُ القُلُوبُ تُنَوَّرُ
من كل زاهرةٍ تَرَقْرَقُ بالنَّدى ... فكأنّها عينٌ عليهِ تُحدَّرُ
تَبدُو ويَحْجُبُها الجَمِيمُ كأنّها ... عَذراءُ تبدُو تارةً وتَخَفَّرُ
حَتّى غَدَتْ وَهَدَاتُها ونجادُها ... فِئَتَينِ في خِلَعِ الرَّبيعِ تَبَختَرُ
مُصْفَرَّةٌ مُحْمَرَّةٌ فكأنّها ... عُصَبٌ تَيَمَّنُ في الوَغى وتَمَضَّرُ
من فاقِعٍ غَضٌ النّباتِ كأنّه ... دُرٌّ يُشَقَّقُ قبلُ ثُمَّ يُزَعْفَرُ
أو ساطِعٍ في حُمْرَةٍ فكأنَّ ما ... يَدنُو إليهِ من الهواءِ مُعَصْفَرُ(17)

إذن، كان جمال الالوان التي تكسو الطبيعة في الربيع، هو السبب الذي اغرى ابا تمام بتفضيل هذا الفصل، والتغني به، وبجمال ما يحتويه من النباتات والازهار المتنوعة، فضلاً عن الامور الأُخر التي تمّ التطرّق اليها.

ولم يكن أبو تمام متفرداً في اعجابه بفصل الربيع، فيما يتصل بجمال ازهاره، وتنوعها واخضرار الطبيعة، التي تبهر عيون الناظرين اليها، إذ اتفق اكثر الشعراء في العصر العباسي على التغني بجمال تلك المناظر الخلاّبة، بكل ما تحمله من مواصفات تجسّد عظمة الخالق القدير، الذي ميّز الربيع على سائر الفصول، سواء أكان ذلك من ناحية الشكل، ام من ناحية المضمون، ومن اولئك الشعراء، الحمدوي، الذي لم يألُ جهداً في وصف انواع الورد، واختلاف الوانه، والتغزل برياض الربيع المزدهرة في كنف هذا الفصل، فيقول:

نشأتْ سحابتُهُ عليه فانشأتْ ... نَوْراً تراهُ ناشِئاً ووليدا



فكأنّها عَدْنٌ لدى أكنافِهِ ... قد نشرتْ فيه التجار برودا
عن اقحوانٍ ضاحِكٍ مُتَبَسِّمٍ ... يفترّ عن بردِ التجارِ عقودا
فثغورُهُ من لؤلؤٍ ولثاته ... ذهب بريق سحابة قد جيدا
ومعصفرات من شقائق البستْ ... مقلاً ترى فيها محاجر سودا
فانهضْ بطرفك حيثُ شِئتَ تجدْ لهُ ... عن عطفه ورداً يخالُ خدودا
تحكي لك الوجنات قد أشعرتها ... خجلاً فتشرب لونها توريدا
قد وشحت اكنافه ببنفسجٍ ... خنثٍ يغازلُ غانياتٍ غيدا
وترى العذارى من بهار باهرٍ ... للشّمسِ تحسب نظمهنّ فريدا
زهر يظلُّ الطّرفُ في اكنافه ... حسراً لِرَونقه النّظير بَلِيدا [18]

وكان البحتري يشعر برقّة نسيم الريح في الربيع، حتّى أنّه يذكّره بلَذّةِ أنفاس الحبيبة، وفي ذلك ما يؤكد جمال الربيع، ويُبرز تفضيله من جوانب شتّى:

وَرَقَّ نَسِيمُ الرِّيح حَتّى حَسِبْتهُ ... يَجِيءُ بأنفاسِ الأحِبَّةِ

ونعود مرة اخرى مع ابن الرومي الى جمال الطبيعة، من خلال بياض انوار الورد، وازدهار ازهاره في الرّياض المختلفة، فتغدو الأرض في الربيع وكأنّها مرتدية كساءً كبيراً من الألوان، التي لا تثير في النفوس جميعاً إلاّ الشعور بالراحة والطمأنينة:

فالأرضُ في روضٍ كأفوافِ الحِبَرْ ... نيّرةُ النُّوار زهراءُ الزهرْ [20]

ومع ان ابن المعتز لا يختلف عن الشعراء السابقين، فيما يخص جمال الطبيعة في فصل الربيع، الاّ انه اضاف عليهم أسباباً أُخر لم يتناولوها في قصائدهم، من ذلك مثلاً خفّة حدّة البرد فيه في وقت السحر، وقلّة الثياب التي



يرتديها الانسان فيه، قياساً بالثياب التي كان يرتديها في فصل الشتاء، فضلاً عن اعتدال الجو فيه من ناحية البرد والحرّ على حدٍّ سواء، يقول:

أتـاكَ الرّبيـعُ بطِيـبِ البُكَـرْ ... وَرَقَّ علـى الجسـم بَـرْدُ السَّحَرْ

وَخَفَّـتْ علـى المَـرْءِ أثوابُـهُ ... إذا راحَ في حاجـةٍ أو بَكَـرْ

وبُقِّـرَتِ الأرضُ عـن جَـوهَرٍ ... فَمُنْـتَظِمٌ منـهُ أو مُنتَثِـرْ

وقـد عَـدَّلَ الـدَّهْرُ ميزانَـهُ ... فـلا فيـهِ حـرٌّ ولا فيـهِ قُـرْ[21]

ولم يبتعد ابن وكيع التنيسي كثيراً عن ابن المعتز، فيما يتعلق بتفضيله فصل الربيع على الفصول الأخر، ولكنه اضاف عليه أشياء أُخر، فغدا اكثر تفصيلاً منهُ، ومن سواه من الشعراء العباسيين، وليس ذلك بامر غريب على شاعر اختص بوصف الربيع، والتغني بجمال الأزهار في معظم شعره.

فهو يرى ان الربيع احسن من الفصول جميعاً حينما يأتي، اذ يعتدل فيه الجو من ناحيتَي البرد والحر، فلهما مقدار محدد يريح الانسان، ويجعله ساكناً مطمئناً لطبيعته فيما يتصل بهذه الناحية، اما بالنسبة لنهار هذا الفصل لدى الشاعر، فانه من احسن النهار، من حيث الضياء والاشراق، فضلاً عن جمال الشمس فيه، واستلطاف النسيم في ليله، وكذلك يفضل الشاعر البدر في هذا الفصل عنه في الفصول الأُخر، كونه يغدو فيه حسن الإشراق، وكثير النور، وفيه تظلّ الطيور في ترنّم دائم، يعجب له المستمع، على الرغم من عدم فهمه له، سوى جمال النباتات فيه، وتنوّع الازهار في الوانها المختلفة، يقول:

جَـاد إلينـا زمـنُ الرَّبيـعِ ... فجَـاءَ فَصْـلٌ حَسَـنُ الجميـعِ

لـبردِهِ وحَـرِّهِ مقـدارٌ ... لمَ يكْتَنِـفْ حَـدَّهما الإكثـارُ

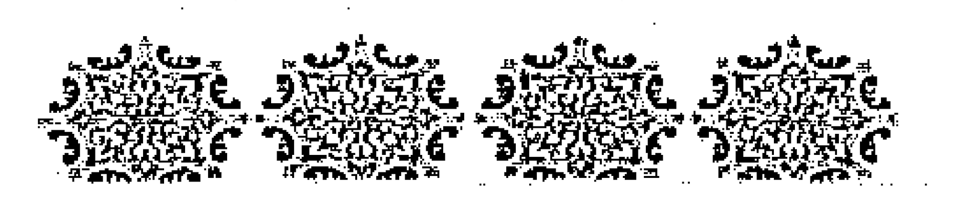
عُـدِّلَ في أوزانِـهِ حتَّـى اعتَـدَلْ ... وحُمِـدَ التَّفْصِيـلُ منـه والجُمَـلْ

نهـــارُهُ مـــن أحســـنِ النهـــارِ   في غايـــة الإشـــراقِ والإســـفارِ
تضحكُ فيه الشمسُ من غير عَجَبْ   كأنَّها في الأُفْقِ جامٌ من ذَهَبْ
وليلُـــهُ مُسْـــتَلْطَفُ النَّسِـــيْمِ   مُقَـــوَّمٌ في أحْسَـــنِ التّقـــويمِ
لبـــدرِهِ فَضْـــلٌ علـــى البُـــدُورِ   في حُسْـنِ إشْـرَاقٍ وفَـرْطِ نُـوْرِ
هـــذا، وكـــم يَجْمَـــعُ مـــن أُمُـــورِ   إســـرافُ مُطْرِيهـــا مِـــنَ التَّقْصِـــيرِ
فيـــه تظـــلُّ الطّـــيرُ في تَـــرَنُّمِ   حاذِقَـــةً بـــاللّحنِ لمْ تُعَلَّـــمِ
غناؤهـــا ذو عُجْمَـــةٍ لا يَفْهَمُـــهْ   ســـامِعُهُ وهـــو علـــى ذا يَقْرَمُـــهْ
فيـــهِ ضُـــرُوبٌ للنبـــاتِ الغَـــضِّ   يحكِي لباسَ الجُنْدِ يومَ العَرْضِ
مـــن نَـــرْجِسٍ أبـــيض كـــالثّغورِ   كأنّـــهُ مَخـــانقُ الكـــافُورِ[22]

لقد كان منظر الطيور في فصل الربيع، مثيراً قوياً لابن وكيع، إذ كثيراً ما كان يتكلم عليه، حين يتغنى بجمال الطبيعة في هذا الفصل، ومن ذلك مثلاً قوله:

وانظُـــرْ الى الأطيـــارِ في أرجائِـــهِ   إذا دَعَـا الثّاكِـلُ منهـا وصَـفَرْ
كأنهـــا تَصْـــفِرُ في رِياضِـــها   سِرْبُ قيانٍ فوق بُسْطٍ من حِبَرْ[23]

ان ما سبق الكلام عليه، كان يمثّل وجهات نظر الشعراء العباسيين في بيان فضل فصل الربيع وجماله، على الفصول الأُخر، ذلك التفضيل الذي دعا بعضهم – وللأسف – الى استثمار هذا الفصل – بكل ما يحمله من ايجابيات في الدعوة الى تناول المحرّمات، ولا سيما شرب الخمرة، فكانت تلك الدعوات أسوأ ما دعا اليه، وتحدث عنه الشعراء العباسيون، أو بصورة أدق، بعض أولئك الشعراء، ومن جهة ثانية شكّلت تلك الدعوات حالاً سيئة لدى الانسان المؤمن الذي يتجنب ارتكاب المعاصي.



فابن بسام مثلاً، يقرن مجيء اللهو والطرب – على حدّ قوله – بمجيء الربيع، فيدعو الى معاقرة الخمرة في هذا الفصل قائلاً:

جاءَ الرّبيعُ وجَاءَ اللّهوُ والطَّرَبُ فاشْرَبْ عُقاراً كَلَونِ النَّارِ

ومثلما اكثر ابن وكيع التنيسي من وصف جمال الازهار والنباتات في فصل الربيع، فانه اكثر- كذلك- من الدعوة الى شرب الخمرة فيه، فهو بعد أنْ يتغنّى بجمال الفصل، يدخل مباشرة الى التشجيع على شربها فيه، غير آبهٍ بتحريمها، أو بنبذ المجتمع لشاربيها، قائلاً:

فانهضْ الى اللّهْوِ ولا تَخَلّفِ فلستَ في ذلكَ بالمُعَنَّفِ

واشربْ عُقاراً طالَ فينا كونُها يَصْفَرّ مِن خَوْفِ المِزاج لونُها[25]

ويدعو في مناسبة اخرى الى عدم المبالاة باقوال اللائمين في شرب الخمرة، وعدم الاستماع لهم، وليس ذلك فحسب، وانما يحاول اقناع متلقيه بما يعتقده هو من خلال طرح فكرة معينة تؤدي الى تحقيق ما يصبو اليه، فيقول:

فانهضْ الى اللّهْوِ ولذّاتِ الصِّبا لاَمَكَ مَنْ يَعْذلُ أو عَذَرْ

فَقَلَّما يُغْنِيْكَ مَنْ يَعْذِل فيـ ـما تَشْتَهِي حَتَّى تُوارِيكَ الحُفَرْ[26]

ويتمادى الشاعر نفسه – في وقت اخر- الى ما هو ابعد من ذلك، حين يصرّح بأنّ ألذ الأشياء لديه هي التي اتّفِقَ على تحريمها، لذا نراه يدعو ساقيه ليسقيه الخمرة المحرمة، لانها من الامور المهمة التي يعيش لها، ومن اجلها، والعياذ بالله:

فَقُمْ فاسْقِني ما حَرَّمُوهُ فما أرى مِنَ العَيْشِ حلواً غيرَ ما قيلَ

ويبدو ان الشعور بجمال الطبيعة لدى بعض الشعراء في الربيع، فضلاً عن نقصٍ واضح واكيد في ايمانهم، كانا سببين رئيسين ومباشرين في تجاوزهم الى هذه الدرجة، فصرّحوا بأمور لا يجوز التصريح بها، وفعلوا اشياء لايجدر

بهم فعلها او القيام بها، والتي كان من اسوئها- طبعاً- الدعوة الى شرب الخمرة، او شربها فعلاً.

وبعد هذا العرض المفصّل لأهم ما تناوله الشعراء من الموضوعات الرئيسة في اثناء وصف الربيع، لابد لنا الآن من الحديث عن اهم ما وفّره اولئك الشعراء من السمات الفنية الى شعرهم الربيعي – إن صحَّ التعبير- والتي اضافت على جمال الربيع جمالاً اخر من حيث الشكل، فامتزج- بذلك- جمال الطبيعة مع جمال اللغة والصور، فغدا التآلف بين الجمالين من اروع مايكون كما سيتضح لنا، فحاكى الشعراء جمال الطبيعة بجمال قصائدهم، من خلال الصور الشعرية الجميلة، التي صاغوها بعبقرياتهم الفذّة، لتشاكل جمال الربيع من حيث التنوع في الالوان البهيجة، وانوار الازهار المتفتحة.

إنّ أول ما يمكننا رصده من ابداعات الشعراء، فيما يتصل بالصور الشعرية الجميلة، هو انهم رسموا لنا صوراً متحركة نكاد نراها باعيننا، على الرغم من انها مرسومة بالكلمات، وفي ذلك- حتماً- مايؤكد مقدرتهم على مجاراة جمال الطبيعة، من خلال اشعارهم التي نظموها في الربيع [28]، فشبّهوا الورد- في بعض اشعارهم- بالعاشق الولهان الذي يُقبّل حبيبته مع عدم اطمئنانه ممن حوله، خوفاً من ان يراه احدهم، فيظل مترقباً في اثناء قيامه بذلك التقبيل:

كأنّهُ حينَ يبدُو مِن مطالِعِهِ صَبٌّ يُقبِّلُ حِبًّا وهو يَرْتَقِبُ [29]

وحاول بعضهم ان يصور حركة الازهار، فضلاً عن حركة الماء في البرك، اذا ما مرّت من فوقه نسمات الرياح، احدثت فيه تموجات شبيهة بالدروع [30]:

انظُرْ الى زهرِ الرّبيع والماءِ في بركِ البديع

وإذا الرياحُ جَرَتْ عليه في الذهاب وفي الرجوع



جــرّتْ علـــى بـــيضِ الصـــفا ئـــح بيننـــا حلـــق الـــدروع[31]

ولا يقتصر فعل الرياح على الازهار والماء فحسب، وانما يتعدى تأثيره الى الاشجار القوية كشجر السرو، الذي ما ان تقبل الرياح من فوقه، حتى تؤثر فيه، فتثني سيقانه وتفعل فعلها فيها، وذلك كله من فوق جدول الماء المتفجّر حيوية ونشاطاً:

والسَّـــرْوُ تَثْنِيـــهِ الرّيـــاحُ لَوَاعِبـــاً مِن فَوقِ جَدْوَلِ مائِهِ المُتَفَجِّرِ[32]

أمّا الرياض التي تكون عامرة بازهار البنفسج، فقد كان حظها ان تشبَّه بالارض الممتلئة بالحجر الكريم ذي اللون الازرق، في مبالغة كبيرة لبيان شدّة جمال تلك الرياض بالازهار التي فيها:

وَرَوضَـــةٍ تُزْهِـــرُ مـــن بَنَفْسَـــجِ كأنَّهـــا أرضٌ مـــن الفَيْـــرُوزَجِ[33]

وعن أنوار الباقلاء، فقد شبّهها بعض الشعراء بالأعين الحوراء، وذلك حين تفتّحها، أو هي كألحاظ الظباء- في عدم استقرارها بسبب حذرها الشديد – اذا ما خافت من الصيّاد:

كـــأنَّ نَـــوْرَ الباقِلّـــاءِ إذْ بَـــدَا لِناظِرِيـــهِ أعـــينٌ فيهـــا حَـــوَرْ

كمثـــلِ ألحـــاظِ اليعـــافِيرِ إذا رَوّعَها مِن قانصٍ فَرْطُ الحَذَرْ[34]

إنّ مَن يُنْعِم النظر في صور النصوص السابقة، لايشكّ أبداً في انه يقف امام تلك المناظر بنفسه، فيراها بعينيه من دون اية مبالغة، وفي ذلك ما يؤكد مقدرة الشعراء على الابداع في رسم الصور المؤثرة، التي استطاعوا من خلالها، محاكاة الطبيعة الخلّابة، ولاسيما في فصل الربيع، هذا من جهة، ومن جهة اخرى، سيرى ذلك الرائي بان اكثر تلك الصور كانت تعتمد التشبيه في رسمها، لذا فقد كان التشبيه البطل الرئيس في محاكاة جمال نباتات الطبيعة بالوانها المختلفة، واشكالها المتعددة.



ولعل اهم ملاحظة يمكن ان ندوِّنها فيما يخص التشبيه، هي ان اكثر الشعراء الذين وصفوا الربيع، أو أي شيء يتضمنه، كانوا يشبهونه بالنساء، او اية صفة تتعلق بهنّ، كصفة العذرية، او الخجل، او غير ذلك من صفات المرأة، كما سيبدو لنا من خلال النصوص الشعرية التي سنتمثل بها، بوصفها ادلة على صدق ما نذهب اليه، ولعل السر الذي يكمن خلف الاكثار من ذلك التشبيه، هو لانهم عدّوا المرأة المثال الاعلى للجمال، فاذا ما أرادوا التعبير عن أي شيء جميل شبّهوه بها، والله (تعالى) اعلم.

إنّ الشجرة الزاهرة في الربيع تتحرك باستمرار، ومن دون توقّف، لذا فهي تبدو مرّة، وتتخفى مرة اخرى، بفعل تكاثف النباتات التي تحيط بها، ولذلك تُشبّه تلك الشجرة بالمرأة العذراء التي تظهر تارة، وتختفي مرة:

تَبدُو ويَحْجُبُها الجَمِيمُ كأنَّها ... عَذْراءُ تَبدُو تارةً وتَتَخَّفَرُ[35]

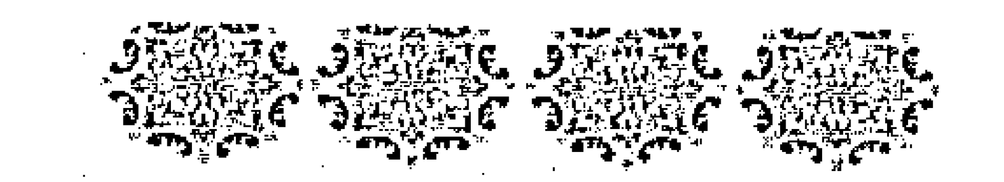
اما الارض في وقت ازدهار النبات فيها، فيعبّر عنها بالتبرّج في فصل الربيع، في كناية لطيفة عن اكتسائها بالازهار الجميلة الملونة، بعد ان كانت مغبرة الوجه قبل قدومه، في كناية عن تجردها من المزروعات في فصل الشتاء، فهي- بذلك- تشبه المرأة التي تتبرّج لزوجها مثلاً:

تَبَرَّجت بعدَ حياءٍ وخَفَرْ ... تَبَرُّجَ الأُنثى تَصَدَّتْ للذَّكَرْ[36]

ويبدو ان ابن وكيع التنيسي قد نال القدح المعلى في تشبيه الربيع، بازهاره ونباتاته المختلفة بالمرأة، او احدى صفاتها، فمن ذلك مثلاً تشبيهه الرياض بالنساء العرائس، اللواتي يتمايلن ويتبخترن في ملابس العرس، في دلالة على الزهو والفرح:

هذي الرِّياضُ كأنَّهُنَّ عَرَائِسٌ ... يَخْتَلْنَ بينَ تمايُلٍ وتَبَخْتُرِ[37]

أو تشبيهه الورد بوجنة الكاعب حين تُمازَح، فتنثني خجلة، وفي ذلك دلالة على شدّة احمرار لون ذلك الورد:



وردٌ كَوَجْنَةِ كاعِبٍ قد مُوزِحَتْ فَتَرَاجَعَتْ خَجْلَى بِفَرْطِ تَحَيُّرِ[38]

ومن ذلك ايضاً، تشبيه البدر – في حسن نوره واشراقه- ببياض الحسناء، من ناحية شدّة نقائه، فضلاً عن تشبيهه بجامة البلور في صفائها:

لبدرِهِ فَضْلٌ على البُدورِ في حُسْنِ إشراقٍ وفَرْطِ نُورِ

كجامَةِ البلورِ في صَفائِها أو غُرَّةِ الحَسْناءِ في نقائِها[39]

لقد كان ابن وكيع مغرماً بتشبيه الورد بخدّي الكاعب، ففي الوقت الذي شبّه فيه الورد- في السابق- بخدّها حين تُمازَح، نراه – في مناسبة اخرى- يُشبّه الورد أيضاً بخدّيها، ولكن في هذه المرة حين يراودها الرجل عن نفسها، فتحمرّ وجنتيها، وذلك الاحمرار هو وجه الشبه بين خدّيها، واحمرار الورد، يقول:

أَمَا تَرَى الوَرْدَ كَخَدَّي كاعِبٍ رَاوَدَها- فامتنعتْ منه- ذَكَرْ[40]

إذن، كان ماسبق الحديث عنه، متصلاً بتشبيه الربيع- بنباتاته وأزهاره المختلفة- بالنساء، او باحدى صفاتهن كما مرّ معنا، إلا أنّ التشبيه لم يقف عند هذا الجانب فحسب، وانما تعدّى الى امور مختلفة أُخر، شملت اشياء عدّة من الحياة، ومن ذلك مثلاً تشبيه الشجرة عند ابي تمام، حين تقع قطرات الندا بين اوراقها، بالعين الدامعة، ولا ندرك سرّ هذا التشبيه لدى الشاعر، فمنظر سقوط قطرات من الماء من اوراق الشجر منظر جميل لا يمكن أن يبعث الحزن في نفس المشاهد، فلا يوجب تشبيهه بعين تدمع، إلا إذا كان الشاعر – في تلك اللحظة- يمرّ بموقف يستحق منه مثل ذلك التشبيه:

مِنْ كُلِّ زاهِرَةٍ تَرَقْرَقُ بالنَّدى ا كذا فكأنها عَيْنٌ عليهِ تَحَدَّرُ[41]

ويشبّه الشاعر انوار الازهار، قبل تفتّحها بالدُرّ، من جهة شدّة البياض، فاذا ما تفتّحت الأزهار، أصبحت الوانها صفراء كالزعفران:

مِن فاقِعٍ غَضِّ النَّباتِ كأنَّهُ دُرٌّ يُشَقَّقُ قَبْلُ ثُمَّ يُزَعْفَرُ[42]

إنّ اشجار السرو، حين تتلاعب بها الرياح، فوق جدول الماء، تبدو وكأنّها جندٌ بملابسهم الخضراء:

والسَّرْوُ تَثْنِيهِ الرِّياحُ لواعِباً ... مِن فَوقِ جَدوَلِ مائِهِ المُتَفَجِّرِ
كالجُندِ في خُضْرِ الملابسِ حاولوا ... أمرًا، فَبَيْنَ مُقلِّصٍ ومُشَمِّرٍ(43)

لقد كانت بعض قصائد ابن وكيع في الربيع، عبارة عن مجموعة كبيرة من التشبيهات النادرة والجميلة في كثير من الاحيان، اذ نراه في احداهن يصف قدوم الربيع بعد الشتاء، مشبّهاً الشتاء بوجه الرجل الذي يهدّد الآخرين في امر ما، في الوقت الذي يشبّه فيه الربيع بوجه الرجل الذي يبشّر بالخير، فيقول:

وافى على أثرِ الشِّتاءِ كأنَّهُ ... إقبالُ جَدٍّ بَعْدَ أمْرٍ مُدْبِرِ
فكأنّ ذلك كان وَجْهَ مُهَدِّدٍ ... وكأنّ هذا جاءَ وَجْهَ مُبَشِّرِ(44)

ثم سرعان ما يقوم الشاعر بتشبيه زهر الباقلاء بالدراهم، فضلا عن تشبيهه وهو فوق غصونه، بالرجل الذي ينظر وهو أقبل أو أحور العين، وكذلك يشبّه ثمار الاترنج، بكؤوس الذهب، ولها مقابض من حرير اخضر، ففي ذلك كله، يقول:

وكأنَّ زَهْرَ الباقِلّاءِ دراهِمٌ ... قد ضُمِّخَتْ أوساطُها بالعَنْبَرِ
وكأنّما الأُتْرُنْجُ أكؤُسُ عَسْجَدٍ ... ولها مَقابضُ مِن حَرِيرٍ أخْضَرِ(45)

ثم إنّ الشاعر لا يستطيع إخفاء رغبته في التشبيه، كلما سنحت له الفرصة لتصوير الربيع، فيشبّه ورد النرجس الابيض بالثغور، ثم سرعان ما يشبّهه بالقلادة المصنوعة من الكافور، فضلاً عن تشبيه روضة البنفسج بالأرض المكتسية بالحجر الكريم الأزرق، كما مرّ بنا سابقاً:

مِن نَرْجِسٍ أبيضَ كالثُّغورِ ... كأنَّه مَخانِقُ الكافورِ



وَرَوْضَــةٍ تُزْهِــرُ مِــن بَنَفْسَــجِ   كأنّهــا أرضٌ مــن الفَيْــرُوزَجِ[46]

لقد اضفى جمال التشبيه، الذي جاء به الشعراء العباسيون[47]، جمالا آخر على جمال الربيع، وجمال الطبيعة فيه، فلا يخفى ما للصورة من اثر في تكوين الاثر الابداعي في أي نص شعري، فكيف بنا اذا كانت الصورة، التي رسمها لنا الشعراء العباسيون لمنظر مصور اصلاً بالوان زاهية، وأشكال لطيفة من الورد والأشجار ؟

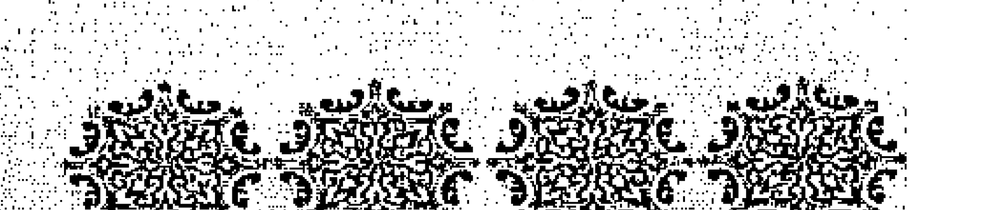
وممّا لاشكّ فيه إنّ الشعراء في العصر العباسي، أرادوا – بتشبيهاتهم السابقة الذكر- محاكاة الطبيعة الخلاّبة في فصل الربيع، فضلاً عن التعبير عن مقدرتهم الشعرية، التي تستطيع مجاراة أيّة قضية طبيعية او انسانية، والإعلان عن عدم تقصيرهم في محاكاتها.

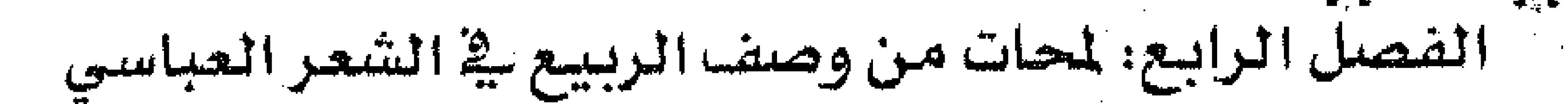
ولم تمتد ايدي الشعراء الى فرشاة التشبيه في رسم لوحاتهم الربيعية، وانما امتدت الى فرشاة الاستعارة ايضاً في ذلك الرسم، إذ جاءت مكملة لمعالم تلك اللوحات الملونة الجميلة، ولاسيما الاستعارة المكنية على وجه التحديد، او ما يعرف بـ (التشخيص)، بمعنى اضفاء سمات الحياة الى الجماد او المعنوي، وبشكل أدق، أنسنة الجماد والمعنوي، ولاسيما الطبيعة، فللشتاء يد لا تُنْكَر، على الرغم من فضل الربيع عليه لدى أبي تمام، فبفضل تلك اليد، نَدِيَت الأرض بأمطار الشتاء، واصبحت الحبوب جاهزة للانبات فيها:

نَزَلَــتْ مُقَدِّمَــةُ المَصِيفِ حَمِيــدَةً   وَيَدُ الشِّتاءِ جَدِيدَةٌ لا تُكْفَرُ[48]

وكانت صفة الضحك التي يتحلّى بها الانسان اكثر صفة نسبها الشعراء الى الربيع، او الى امور تتعلق به كما سنرى، وما كان ذلك – برأيي- الا بسبب الاستبشار، وفرحة الشاعر نفسه بقدوم الربيع، فحاول ان يسقط ضحكه او فرحته على الربيع، او نباتاته، او كل ما يتعلق بذلك.







وكانت ابيات البحتري المعروفة في وصف الربيع، من ابرز الابيات التي وُصِفَ فيها الربيع بالضحك والاختيال، حتى جعله الشاعر وكأنه يحاول الكلام، إذ يقول:

اتاكَ الرّبيعُ الطّلْقُ يَخْتالُ ضَاحِكاً مِنَ الحُسْنِ حَتّى كَادَ أنْ يَتَكَلّما

وَقَدْ نَبَّهَ النَّورُوزُ في غَلَسِ الدُّجَى أوائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمْسِ نُوَّما[49]

فرسم لنا الشاعر الربيع ضاحكاً، يكاد يتكلم، وكأنما الربيع ينبّه الورد في ظلمة الليل، كي يستيقظ من الصباح الباكر، ليرى جمال الحياة من أول النهار[50].

ولم يقتصر الضحك في اضفائه على الربيع فحسب، بل تعدّى الى الشمس، التي تضحك هي الاخرى في هذا الفصل، ولكن من غير عجب بنفسها، كما يرى الشاعر:

تضحكُ فيه الشّمْسُ من غيرِ عَجَبْ كأنّها في الأُفْقِ جامٌ مِن ذَهَبْ[51]

وكذلك يمتاز الزهر الأحمر بصفة الضحك في روضته:

يضحكُ فيها زَهَرُ الشّقيقِ كأنّهُ مَداهِنُ العَقيقِ[52]

ويمتاز الروض بالتبسم، في كناية لطيفة من لدن الشاعر، على تفتّح الأزهار في فصل الربيع:

أسْفَرَ عن بَهجتِهِ الدّهْرُ الأغَرْ وابتَسَمَ الرَّوضُ لنا عن الزَّهَرْ[53]

ان هذه الاستعارات المكنية، لم تكن طارئة على وصف الربيع، بل كانت على صلة متينة معهُ، إذ إنّ هناك علاقة قوية بين ما اضفاه الشعراء من استعارات على النباتات، وتلك النباتات او الربيع عموماً، ومن ذلك اضفاء العيون عليها، من لدن ابن وكيع التنيسي، ومنها اضفاؤها على النرجس، الذي يمتاز – اصلاً- بطبيعته المستديرة، ولونه الاصفر، الذي يشبه العيون، لذا يصفه الشاعر بالرنو، أي النظر بسكون الطرف، وذلك في قوله:

والنّـــرْجِسُ الرَّيّـــانْ بـــينَ رِياضِيـــهِ   يَرْنُـــو بعـــينِ الباهِـــتِ المُتَحَيّـــرِ[54]

وما قلناه عن أزهار النرجس، ينطبق تماماً على نبات المنثور، الذي وصفه الشاعر عينه بالوصف ذاته، في قوله:

وانظُـــرْ الى المَنْثُـــورِ في مَيدانِـــهِ   يَرْنُو الى النَّاظِرِ مِن حَيثُ نَظَـرْ[55]

ولم تكـن الصـفات الانسـانية، او الاعضـاء الـتي اضـفاها الشـعراء العباسيون على الربيع وازهاره، مثل اليد والعين والضحك، هي الوحيدة في قصائدهم، وانما حفلت دواوينهم بغيرها من الاعضاء والصفات الانسانية، ولاسيما في وصف الطبيعة، وفي فصل الربيع على وجه الخصوص[56].

وكان الحوار الذي يدور بين انواع الورد، جزءاً لا يتجزأ من عملية التشخيص، فحين يجعل الشاعر ما لاينطق ناطقاً، فانه يضفي عليه صفة الحياة والانسانية، وهنا لا نجد الزهور تتحاور بحديث اعتيادي فحسب، وانما نستمع الى حجج وبراهين لكل نوع من انواعه في محاولة منه لاقناع الطرف الآخر بتفضيله على الأنواع الأُخر، فالورد الجميل يحمرّ خجلاً حين يجادله النرجس، ويفضل العين على الخد، إذ لا قيمة برأي النرجس لخدٍ صاحبه اعمى البصر، وذلك لأنّ الورد معروف بشدّة احمراره، لذا تشبّه به الخدود، في حين يكون النرجس مدوّراً، فتشبّه به العيون:

أَمَا تَـرَى الـوَرْدَ كَخَـدَّيْ كاعِـبٍ   راوَدَهـا- فامتنعـتْ منـه- ذَكَـرْ

كأنّمـا الخَمْـرُ عليـه نَفَضَـتْ   صِـباغَها أو هِـيَ منـه تُعْتَصَـرْ

أَخْجَلَـهُ النَّـرْجِسُ إذ جادَلَـهُ   فـاحْمَرَّ مِـن فَـرْطِ حَيَـاءٍ وَخَفَـرْ

قـال لـه: العـينُ ومـا الخَـدُّ لهـا   مُوازنـاً في عُظْـمِ قَـدْرٍ وَخَطَـرْ

مـاذا الـذي يُرْجَـى لِخَـدٍّ بَهِـجٍ   مُسْتَحْسَنٍ، صاحِبُهُ أعمى البَصَرْ؟

فـاحْمَرَّ مِـن حُجَّتِـهِ إذ ظَهَـرَتْ   والحَـقُّ لا يُـدْفَعُ يَومـاً إنْ ظَهَـرْ[57]



وربما يكون من نافلة القول ان نشير هنا الى ان الشاعر كان هو من يفضّل زهر النرجس على الورد، فاسقط رأيه هذا على لسان النرجس، في المحاورة الشعرية التي دارت بين هذين النوعين من الورد.

وحتى في الوقت الذي تختفي فيه المحاورة على ألسنة الازهار، فاننا نلمس الورد وهو يعاني صراعاً كبيراً عندما يستفزّه نوع من الانواع المتعددة من الازهار، فنجده عامراً بالاحساسات المتباينة بين فرح وترح، وبين غرور وغيظ، وما الى ذلك من الامور التي يشعر بها الناس وهي لا تكتفي بذلك، وإنّما تسعى الى التطاول على الورد، وتشعره بانه قليل الشأن امامها من ناحية الجمال، الى ان تستثير غيظه وحنقه، فتشعره بالغضب الشديد، وفي الوقت نفسه، نرى الورد منتصراً، مشيداً بافضليته عندما ينافسه زهر الشقيق، ويعتقد بانه اجمل منه، فيرجع خائباً، لاطما خدّه، بسبب انتصار الورد عليه:

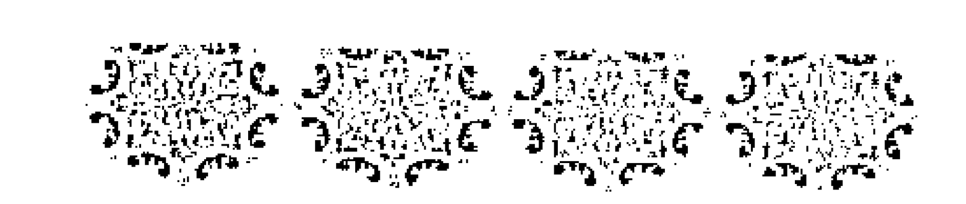
فمن نَرْجِسٍ لَمّا رَأَى حُسْنَ نَفْسِهِ ... تَدَاخَلَهُ عُجْبٌ بها فَتَبَسَّما

وأبدى على الوَرْدِ الجَنِيِّ تَطاوُلاً ... فأظْهَرَ غَيظُ الوردِ في خَدِّهِ دَمَا

وَزَهرِ شَقِيقٍ نازَعَ الوَرْدَ فَضْلَهُ ... فَزَادَ عليهِ الوَرْدُ فَضْلاً وقَدَّما

وظَلَّ لِفَرْطِ الحُزْنِ يَلْطِمُ خَدَّهُ ... فأظْهَرَ فيه اللَّطْمُ جَمْراً مُضَرَّما[58]

وبانتهاء الحديث عن التشبيه والاستعارة، نرى ان الصورة الشعرية البيانية قد اكتملت ايضاً، بل ونجحت في محاكاة المناظر الخلابة التي ولدت في رحم فصل الربيع، فنحن نعتقد ان الشعراء العباسيين لم يألوا جهداً في منافسة جمال تلك الطبيعة، من خلال ما وضّفوه في قصائدهم من اللغة الموحية التي استطاعت ان توصل للمتلقي سرّ ذلك الجمال، وتحاكيه، فكأنها غدت مرآة واضحة الرؤية تعكس تلك المناظر بدقة وواقعية كبيرتين، وهذا ما يُحْسَب للشعراء حتماً، وفي النصوص التي تمثّلنا بها سابقاً، ما يؤكّد صدق زعمنا.



ولم يكتف كثير من شعراء الطبيعة بالصورة البيانية في رسم لوحاتهم، وانما لجؤوا ايضاً الى فن البديع، فاستثمروه في قصائدهم التي تشيد بالربيع وازهار الرياض فيه، وذلك لاستكمال رسم الصورة الربيعية المدهشة بمنظرها، فاستعملوا منه (الجناس)، فيما يتصل بالمحسنات اللفظية، و(الطباق)، فيما يتصل بالمحسنات المعنوية، كما سنرى فيما سيأتي.

فبالنسبة الى الجناس، نعتقد ان الشعراء العباسيين ارادوا- من خلال الاكثار منه في قصائدهم التي اختصت بوصف ازهار الربيع، ونباتاته المختلفة- إحداث ايقاع جميل ينسجم وايقاع الربيع المنبعث من تجانس الوان ازهاره المتعددة، فتغدو قصائدهم كقطعة قماش موشاة بالوان زاهية تشبه الوان رياض الربيع.

وسنتمثّل فيما يأتي ببعض الجناسات الربيعية لدى كثير من الشعراء العباسيين، التي لانشك في انهم كانوا يخططون لها مسبقاً، ويدرسونها بعمق قبل تثبيتها في قصائدهم، لتأتي منسجمة مع جمال الطبيعة في الربيع، بمعنى اننا لانعتقد بان تلك الجناسات كانت تأتي في قصائدهم، بعفوية بقدر ما كانت تخضع في المختبر النقدي، واعني به مختبر الشعراء الذي يختبرون فيه ابداعاتهم الشعرية، ولاسيما فيما يتعلق بلوحة الربيع الشعرية.

ومن ابرز النصوص التي تؤيد قولنا، هي قول ابي تمام، الذي وصف فيه الربيع بشمولية تامة، إذ نجد فيه ثلاثة ابيات توشى بهذا الفن البديعي، إذ جانس في هذه الابيات بين (الصحو، وصحو)، و (غيثان، وغيث، وغيث)، و (أربيعنا، وللربيع)، قائلاً:

مَطَـرٌ يَـذُوبُ الصَّـحْوُ منـه وبَعْـدَهُ	**صَحْوٌ يكـادُ مِنَ الغَضَـارَةِ يُمْطِـرُ**
غَيْثـانِ فـالأنواءُ غَيْـثٌ ظـاهِرٌ	**لَكَ وَجْهُهُ، والصَّحْوُ غَيْثٌ مُضْمَرُ**

[....]





أَرَبِيعَنَا فِي تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً حَقاً لَهِنَّكَ لَلَّرَبِيعُ الأزهَرُ[59]

وما قيل عن ابيات ابي تمام، يقال عن ابيات الحمدوي، التي جانس فيها – في ثلاثة ابيات من القصيدة نفسها – بين (نشأت، وفانشأت، وناشئاً)، و(بهار، وباهر)، و (يصددن، وصد)، إذ يقول:

نشأت سحابته فانشأت نَوْراً تراهُ ناشِئاً ووليدا

[....]

وترى العذارى من بهارٍ باهرٍ للشمسِ تحسب نظمهنّ فريدا

[....]

يصددنَ صَدٌ مُتيّمٍ مُتَهَزّمٍ أنحَى لَهُ عُذّالُهُ تفنيدا[60]

أما عن الجناسات الأُخر، فإنّ ما وجدناه منها لدى الشعراء، كان يمثّل- في اكثر الاحيان- فضائل الربيع، ومزاياه الايجابية، فهو لدى ابن المعتز معتدل الجو، فليس فيه حرّ، ولا فيه برد، لذا جانس الشاعر بين لفظتي (حر، وقر)، وان كان بحرف واحد، في قوله:

وقد عَدَّل الدهرُ ميزانَهُ فلا فيهِ حَرٌّ ولا فيه قُرْ[61]

ونلحظ الشيء نفسه في قول ابن بسام، الذي يجانس فيه بين لفظتي (الورد، وللورود):

اما ترى الوَرْدَ يَدعُو لِلوُرُودِ الى خَمْرٍ مُعَتَّقَةٍ فِي لَونِها صَهَبُ[62]

في حين جانس الشاعر كشاجم في شعره بين لفظتي الترحيب اللتين استقبل بهما فصل الربيع، واعني بهما (حيِّ، وتحيّة)، قائلاً:

حَيِّ الرَّبِيعَ تَحِيَّةَ المُستَقبِلِ أهْدَى السُّرُورَ لنا بِغَيْثٍ مُسْبَلِ[63]

وعلى الرغم من إكثار الشعراء العباسيين من استخدام فن الجناس في قصائدهم التي تغنوا فيها بجمال الطبيعة الساحرة في فصل الربيع [64]، إلّا أنّ



ابن وكيع التنيسي كان قد نال قصب السبق في استخدامه لهذا الفن البديعي في شعره، الذي تناول المضمون الذي نتكلم عليه نفسه، لذا سنفصل فيه القول فيما سيأتي من نصوص شعرية ربيعية.

ومن الملاحظ على شعر ابن وكيع فيما يخص هذا الجانب، نرى انه كان يكثر من الاتيان بفن الجناس في ابيات متعددة من القصيدة الواحدة، فمن ذلك انه جاء باربعة ابيات جانس فيها بين الفاظ عدّة، كانت ثلاثة منها على نحو متسلسل كما سيأتي، فقد جانس فيها بين الالفاظ (مقصراً، ومقصر)، و (جوهر، والجواهر، والجوهر)، و(يبقى، وبقاء)، و(سِرّ، وأسرّ)، و(فأذاعه، وفأذاع)، و(بطيبه، وطيب)، اذ يقول:

حُلَلٌ تُعَدُّ- إذا اجتهدتَ- مُقَصِّراً ... في وَصْفِها، وتكونُ غَيرَ مُقَصِّرِ

[....]

في جَوهرٍ فاقَ الجواهِرَ قِيْمَةً ... لو انَّهُ يَبْقَى بقاءَ الجَوهَرِ

سِرٌّ أسَرَّ بِهِ السَّحائِبُ في الثَّرى ... فأذاعه، فأذاعَ أحْسَنَ مَنْظَرِ

زمنٌ أغَرُّ فلو شَرَيْتَ بِطيبِهِ ... طِيبَ الجِنانِ لكان أرْبَحَ مَتْجَرِ[65]

ومما يؤكد قصديّة ابن وكيع التنيسي في استثماره لفن الجناس في شعره، الذي خصّصه لوصف الربيع وازهاره المختلفة، هو مجانسته بين ألفاظ سبعة أبيات من قصيدة ربيعية واحدة، ففي ذلك ما يقطع بصحة ما ذهبنا اليه، فقد جانس في ابيات هذه القصيدة على التوالي، بين الفاظ (عُدِّل، واعتدل)، و(نهاره، والنهار)، و(مقوَّم، والتقويم)، و (لبدره، والبدور)، و(رنين، وحنين)، و(الشقيق، والعقيق)، و(انظر، ونظرتا)، فقال في ذلك كلّه:

عُدِّلَ في أوزانِهِ حتّى اعتَدَلْ ... وحُمِدَ التّفصِيلُ منهُ والجُمَلْ

نهارُهُ من أحسنِ النَّهارِ ... في غايةِ الإشراقِ والإسفارِ

[....]

وليلُـــهُ مُسْـــتَلْطَفُ النَّسِـــيمِ مُقَـــوَّمٌ في أحســـنِ التّقـــويمِ
لِبَـــدْرِهِ فَضْـــلٌ علـــى البُـــدُورِ في حُسْـــنِ إشْـــراقٍ وفَـــرْطِ نُـــوْرِ

[....]

مِـــن كُـــلِّ دُبْسِـــيٍّ لَـــهُ رَنِـــينُ وكُـــلِّ قُمْـــرِيٍّ لـــه حَـــنِينُ

[....]

يضـــحكُ فيهـــا زَهـــرُ الشّـــقيقِ كأنّـــه مَـــداهِنُ العَقيـــقِ

[....]

وانظُـرْ الى الخَشْـخاشِ إنْ نظرتـا يَحْكِـي كُـرَاتٍ ظُـوْهِرَتْ

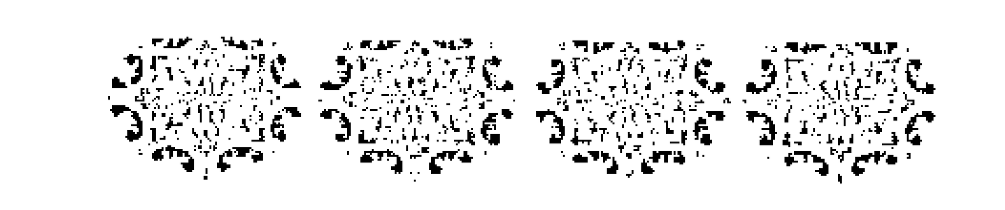
ويكرر الشاعر مجانسته بين الفاظ النظر في قصيدة أخرى ثلاث مرات، قائلاً:

وانظُـــرْ الى المنثُـــورِ في مَيدانِـــهِ يَرنُو الى النّاظِرِ من حيثُ نَظَرْ[67]

اذن، كان ابن وكيع التنيسي، كثيراً ما يستثمر الجناس في قصائده، فقد بدا لنا ذلك بوضوح شديد، من خلال النصوص التي تمثّلنا بها، والتي سنختمها بهذين البيتين اللذين جانس الشاعر فيهما بين الفاظ (الربيع، والربعي)، و(يلطم، واللطم)، فقال:

ألَسـتَ تـرى وَشْـيَ الرّبيـعِ المُنْمنَمـا ومـا رَصَّـعَ الرِّبْعِـيُّ فيـه وَنَظَّمَـا
وظَـلَّ لِفَـرْطِ الحُـزْنِ يلْطِـمُ خَـدَّهُ فأظْهَرَ فيه اللَّطْمُ جَمْراً مُضَرَّما[68]

أمّا فيما يخصّ الطباق، بوصفه فنًّا معنويًّا، فإنّ الملاحظة الغالبة عليه، والتي يمكننا تدوينها، فيما يتصّل بإكثار الشعراء العباسيين من استثماره في قصائدهم، التي وصفوا فيها الربيع، هي أنهم – في أكثر تلك النصوص- حاولوا عقد موازنات لبيان ايجابيات الربيع من دون سواه من الفصول الأُخر، فأبرزوا- من خلال الطباق – جمال الربيع، وتحليه بالصفات الجيدة التي



تفقدها الفصول الأُخر، فضلاً عن مطابقتهم بين أمور كثيرة أُخر لا علاقة لها بهذا الجانب، لذا سنستقري الطباقات البلاغية لدى الشعراء العباسيين، من حيث ورودها في قصائدهم بحسب التسلسل الزمني الذي اتبعناه في البحث.

لقد طابق أبو تمام بين لفظتي (ظاهر، ومضمر)، وذلك في وصف نوعين من الغيث، أما (الظاهر) منهما، فقصد به الغيث الحقيقي الملموس، والذي ينزل من السماء حقيقة، وأما (المضمر)، فقصد به ما يتكون من الندا بسبب رطوبة الهواء وغضارته، فهو – بذلك- غيث لايتمكن المرء من رؤيته كما في النوع الأول، فيقول:

غَيْثـانِ فـالأنواءُ غَيْـثٌ ظـاهِرٌ   لَكَ وَجْهُهُ، والصَّحْوُ غَيْثٌ مُضْمَرُ

ويتكلم الشاعر أيضاً على عملية حرث الأرض، وكيف تقلب بطونها لظهورها، من أجل انبات النبات في الربيع، فقال مطابقاً بين لفظتي (بطونها، ولظهورها):

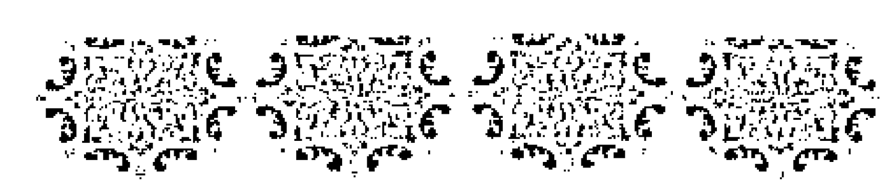
أضحَتْ تَصُوغُ بُطونُها لِظُهورِها   نَوْراً تكادُلُهُ القُلُوبُ تُنَوَّرُ(70)

وحين يتحدث عن الشجرة الزاهرة، التي تنمو وسط النبات الكثيف، فانه يلجأ الى المطابقة بين ظهورها تارة، واختفائها تارة أخرى، عن طريق الألفاظ (تبدو، ويحجبها)، و (تبدو، وتخفّر)، فيقول:

تَبدُو ويَحجُبُها الجَمِيمُ كأنّها   عَذراءُ تَبْدُو تارةً وتَخَفَّرُ(71)

وفي الأبيات السابقة، يبدو المطّلع عليها، وكأنه يرى المناظر- التي صوّرها أبو تمام- بعينيه من دون أية مبالغة، وذلك يرجع الى مقدرة الشاعر على التصوير، والإجادة في رسم معالمه، فيجعل القارئ أو المستمع يشعر بذلك الشعور، ويقتنع به في أكثر الأحيان.

ويطابق الشاعر الحمدوي بين لفظتي (الركوع، والسجود)، في كناية عن انحناء الأزهار بفعل الرياح التي تلاعبها في هذا الفصل، قائلاً:



فـاذا الرّيـاحُ مَشَـينَ فيـه ظَلَلْـنَ مـن ... كَسَلِ النعيمِ رواكعاً وسجودا [72]

وليس هنالك أدنى شك في ابداع البحتري في وصفه قدوم الربيع، حين عَبّر عنه بأنّه (أحَلَّ) بعد أن كان (محرماً)، في كناية عن عدم قدومه بعد، فطابق بين هاتين اللفظتين (أحَلَّ، ومحرما)، فضلاً عن مطابقته بين لفظتي (بشاشة، وقذى)، في البيت نفسه، فغدا- بذلك- من أروع الطباقات التي وردت في شعر الربيع، ولاسيما أنّ الشاعر جاء بألفاظ دينية أصلاً، وأفاد منها في وصف مجيء الربيع، فأحدث موازنة لطيفة فيما أبداه للعيون بعد قدومه، وفيما كان قبل ذلك:

أحَـلَّ، فأبـدى للعُيُـونِ بشاشَـةً، ... وكان قَذَى للعَينِ إذْ كانَ مُحْرِما

لقد عقد أكثر الشعراء العباسيين الموازنات، من خلال طباقاتهم الجميلة، وذلك لتفضيل الربيع على الفصول الأُخر كما ذكرنا سابقاً، ومن تلك الموازنات ما طابق- من خلالها- ابن المعتز بين (الحر، والقر (البرد))، لبيان اعتدال الجو في فصل الربيع، في قوله:

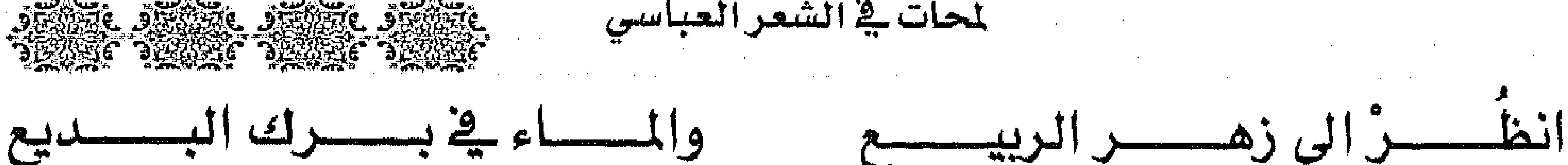
وقـد عَـدَّلَ الـدَّهْرُ ميزانَـهُ ... فـلا فيـه حَـرٌّ ولا فيـه قُـرْ [74]

وحين أراد الشاعر ابن بسام، التعبير عن حُسْنِ الورد وإشراقه، إذا نظرت إليه عين المحب، الذي هاجه الطرب، جعله يخاف الملال من طول الإقامة، لذا ظَلَّ يظهر تارة، ويحتجب تارة أخرى، فحصل الطباق هنا بين لفظتي (يظهر، ويحتجب)، في قوله:

للـوردِ حُسْـنٌ وإشْـراقٌ إذا نَظَـرَتْ ... إليـهِ عَـينُ مُحِـبٍّ هاجَـهُ الطَّـرَبُ

خـافَ المَلَـالَ إذا طالـتْ إقامتُـهُ ... فَظَلَّ يَظْهَـرُ أحياناً ويَحْتَجِـبُ [75]

وجاء الطباق بين لفظتي (الذهاب، والرجوع)، في شعر أبي فراس الحمداني، بسيطاً، لاعمق فيه، أراد به الشاعر تصوير الأزهار في الربيع من ناحية الحركة، فضلاً عن تصوير الماء في البركة، حين تجري فوقه الرياح:



انظُـــرْ الى زهـــر الربيـــع والمـــاء في بـــرك البـــديع

وإذا الريـــاح جـــرت عليـــ ـــهِ في الـذهابِ وفي الرجـوع [76]

أمّا ابن وكيع التنيسي، الذي كان مبدعاً دوماً في وصف كلّ ماله شأن بالربيع، بوصفه مختصًّا بالتغني بأنواع الأزهار والنباتات التي تفترش الرياض، ولاسيما في هذا الفصل، فانه كان مسرفاً أكثر ممّن سبقوه في الافادة من هذا الفن البديعي، الذي يحتوي دلالات عميقة ومميزة، فنراه يطابق بين الألفاظ (إقبال، ومدبر) و (ذلك، وهذا) و (مهدّد، ومبشّر)، في بيتين يصوّر فيهما قدوم الربيع بعد الشتاء، ليتوصّل- من خلال الموازنة التي عقدها بين الفصلين- الى روعة الربيع، وقربه من نفسه، على العكس من فصل الشتاء، الذي شبّهه بوجه المهدِّد، وذلك حين قال:

وافـى علـى أَثَـرِ الشِّـتاءِ كأنَّـهُ إقبـالُ جَـدٍّ بَعْـدَ أمْـرٍ مُـدْبِرِ

فكـأنَّ ذلـكَ كـان وَجْـهَ مُهَـدِّدٍ وكأنَّ هذا جاءَ وَجْهَ مُبَشِّرِ (77)

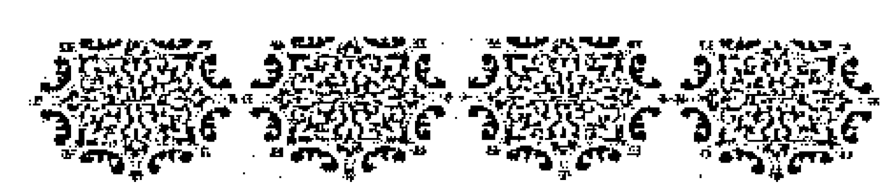
ويحذو الشاعر حذو ابن المعتز، عندما طابق بين لفظتي (الحر، والبرد)، كما مرَّ بنا، وللغاية نفسها، وأعني بها اعتدال الجو في هذا الفصل، فيقول:

لِبَـــرْدِهِ وَحَـــرِّهِ مِقْـــدَارُ لم يَكْتَنِفْ حَدَّهُما الإكثارُ [78]

ولكثرة صفات الربيع الجيدة والحسنة، يرى الشاعر نفسه مقصراً في وصف تلك المزايا، على الرغم من ادراكه التام بأنّه قد أسرف في نعتها، لذا نراه يطابق هنا بين لفظتي (الإسراف، والتقصير)، في قوله:

هـذا، وكَـمْ يجمـعُ مـن أُمُـورِ إسرافُ مُطْرِيها مِنَ التَّقْصِيرِ [79]

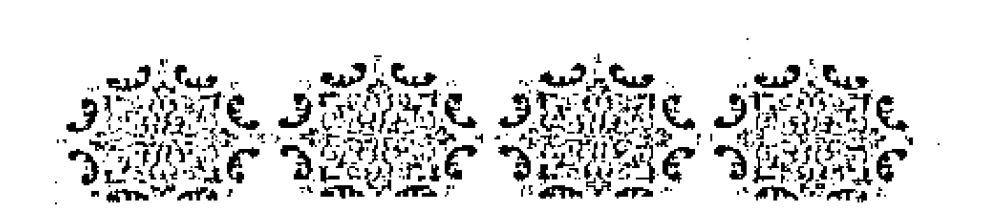
ونرى الشاعر في موضع آخر من القصيدة نفسها، مطابقاً بين الألفاظ (يفشي، ويُضْمِر)، و (إعلانه، وكتمانه)، وذلك في موضع التعبير عن تفتّح الأزهار في الرياض، وإفشاءِ التراب للسرّ الذي كان يضمره، مع علم الشاعر



بأن الإعلان عن ذلك السرّ هو ما يزينه، على العكس من كثير من الأمور التي لايجدر الإعلان عنها، كما يقول:

هــذا، وفيــه للريــاضِ منظــرُ يُفْشِي الثَّرى مِن سِرِّها مايُضْمِرُ
سِــرٌّ نبــاتٍ حســنُهُ إعلانُــهْ إذا سِــوَاه زَانَــه كتمانُــهْ [80]

لقــد جــاءت الفنــون البيانيــة، كالتشــبيه والاســتعارة، والبديعيــة، كالجناس والطباق، في القصائد التي حاكت جمال فصل الربيع، ونسيمه العذب، لتضفي جمالاً أخّاذًا آخر على جماله الطبيعي من ناحية، ولتؤكد مقدرة الشعراء العباسيين على منافسة الطبيعة في جمالها، من خلال جمال نظمهم فيها من النواحي المختلفة، فغدت قصائدهم في الربيع روضة من رياضه المزدهرة، بما وفّره الشعراء لها من خبرات فنية، ومقدرة لغوية فذّة، استطاعت أنْ تنقل لنا صورة الربيع الجميلة بكل صدق واحساس.



الهوامش

1- الادب وقيم الحياة المعاصرة / 405.

2- م. ن / 404.

3- ديوان الحمدوي / 78.

4- ديوان ابن الرومي 3 / 993.

5- ديوان كشاجم / 340.

6- ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر/ 75.

7- ينظر على سبيل المثال: ديوان البحتري 4 / 2090، وابن بسام، حياته وشعره/ 384.

8- ينظر على سبيل المثال: ديوان ابي تمام 2 / 191 – 197، وديوان البحتري 4 / 2090 – 2092.

9- ديوان الحمدوي / 78.

10-ديوان كشاجم / 340.

11-ديوان الحمدوي / 78.

12-ديوان كشاجم / 340.

13-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 76، الوشي: الثياب الموشاة بالالوان المختلفة، شبّه بها الرياض، النثار: ماينثر ويفرق، وينظر ديوان ابن الرومي 3 / 993.

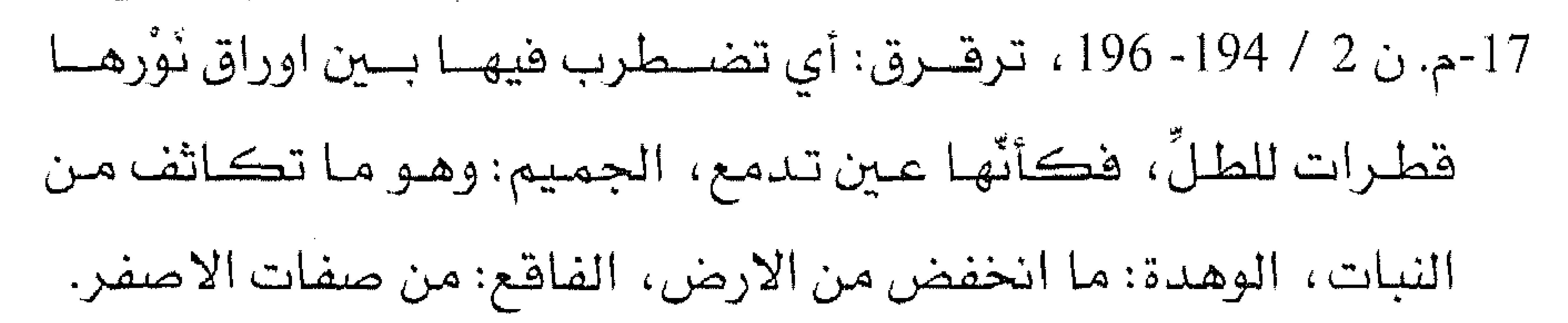
14-ديوان ابي تمام 2 / 191، تتمرمر: تموج وتظرب ليناً ونعومة.

15-م. ن 2 / 194.

16-م. ن 2 / 194.







17-م. ن 2 / 194- 196، ترقرق: أي تضطرب فيها بين اوراق نَوْرِها قطرات للطلِّ، فكأنّها عين تدمع، الجميم: وهو ما تكاثف من النبات، الوهدة: ما انخفض من الارض، الفاقع: من صفات الاصفر.

18-ديوان الحمدوي / 78 – 79.

19-ديوان البحتري 4 / 2091.

20-ديوان ابن الرومي 3 / 993.

21-شعر ابن المعتز 2 / 132 – 133.

22-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر/ 71 – 73، اكتنفه: احاط به، جام: كأس، يقرمه: يشتهيه، المخانق: جمع مخنقة: أي قلادة محيطة بالعنق.

23-م. ن / 77 – 78، صفر: صوّت.

24-ابن بسام، حياته وشعره / 384، وينظر: شعر ابن المعتز 2 / 133.

25-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر/ 74.

26-م. ن / 78.

27-م. ن / 93.

28-ينظر على سبيل المثال: ديوان ابي تمام 2 / 191 – 192، وديوان الحمدوي/ 79، وشعر ابن المعتز 2 / 133.

29-ابن بسام، حياته وشعره / 385.

30-ابو فراس الحمداني / 144.

31-ديوان ابي فراس الحمداني / 151 -152.

32-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 64، السرو: شجر قويم الساق حسن الهيأة.

33-م. ن / 73، الفيروزج: حجر كريم ازرق.



34-م. ن /77، اليعافير: الظباء التي لونها كلون التراب، او هي أولاد البقر الوحشي، واحدها يعفور.

35-ديوان ابي تمام 2 / 195.

36-ديوان ابن الرومي 3 / 993.

37-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 63.

38-م. ن / 64، الكاعب: الفتاة التي نهد ثدياها.

39-م. ن / 72، غرّة الحسناء: بياضها.

40-م. ن / 76.

41-ديوان ابي تمام 2 / 195.

42-م. ن 2 / 195.

43-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 64.

44-م. ن / 64.

45-م. ن / 64، ضُمِّخَتْ: لُطِّخَتْ، الأقبل: الذي يُقبل سواد عينيه على أنفه، الأترنج: ثمر من جنس الليمون، والعسجد: الذهب.

46-م. ن / 73.

47-ينظر على سبيل المثال: ديوان الحمدوي/ 79، وديوان البحتري 4 / 2090 – 2091، وشعر ابن المعتز 2/ 133، وابن بسّام، حياته وشعره / 385، وابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 74، 74، 77، 92.

48-ديوان ابي تمّام 2 / 191.

49-ديوان البحتري 4 / 2090، الطلق: المشرق.

50-ينظر: اصول النقد الادبي/ 63، ومن النقد الأدبي/ 55.

51-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 71.

52-م. ن / 73.





53-م. ن / 75.

54-م. ن / 64.

55-م. ن / 76، المنثور: نبات جميل طيب الرائحة، وساقه متينة تقرب من ان تكون خشبية مبيضة، وتخرج منها جملة اغصان، واوراقه سهمية، فيها بعض ضيق، وله زهر مختلف، بعضه ابيض وبعضه أصفر.

56-ينظر على سبيل المثال: ديوان ابن الرومي 3 / 993، وابن بسّام، حياته وشعره / 384 – 385، وابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 63، 72.

57-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 76.

58-م. ن / 92 – 93.

59-ديوان ابي تمام 2 / 192 – 193.

60-ديوان الحمدوي / 78 – 79.

61- شعر ابن المعتز 2 / 133.

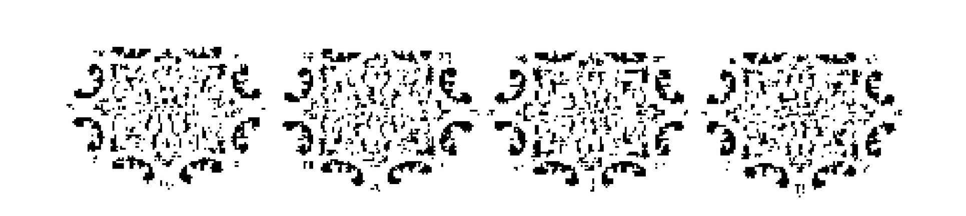
62-ابن بسام، حياته وشعره / 384.

63-ديوان كشاجم / 340.

64-ينظر على سبيل المثال: ديوان ابي تمام 2 / 195، وديوان البحتري 4 / 2091، وديوان ابن الرومي 3 / 993.

65-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 63.

66-م. ن / 71 – 73، الدبسي: ضرب من الحمام، وقيل: طائر صغير ادكن يقرقر، وقيل: انه ذكر اليمام، ظُوهِرت: أي جُعِلَ لها غشاء ظاهر، والكيمخت: لفظة فارسية بمعنى الكميت، أي احمر مائل الى السواد.





67-م. ن / 76.

68-م. ن / 92 – 93.

69-ديوان ابي تمام 2 / 192.

70-م. ن 2 / 195.

71-م. ن 2 / 195.

72-ديوان الحمدوي / 79.

73-ديوان البحتري 4 / 2091، أحَلَّ: دخل في شهر الحِلّ، او خرج الى الحِلّ وخرج من ميثاق كان عليه، وأحَلَّ: لبس ثياب الحِلّ، المحرم: الذي تجرّد من ثيابه ولبس ثياب الإحرام في الحج.

74-شعر ابن المعتز 2 / 133.

75-ابن بسام، حياته وشعره / 385.

76-ديوان ابي فراس الحمداني / 151 – 152.

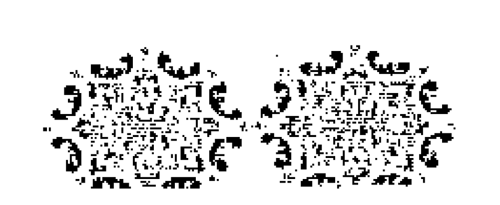
77-ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / 64.

78-م. ن / 71.

79-م. ن / 72.

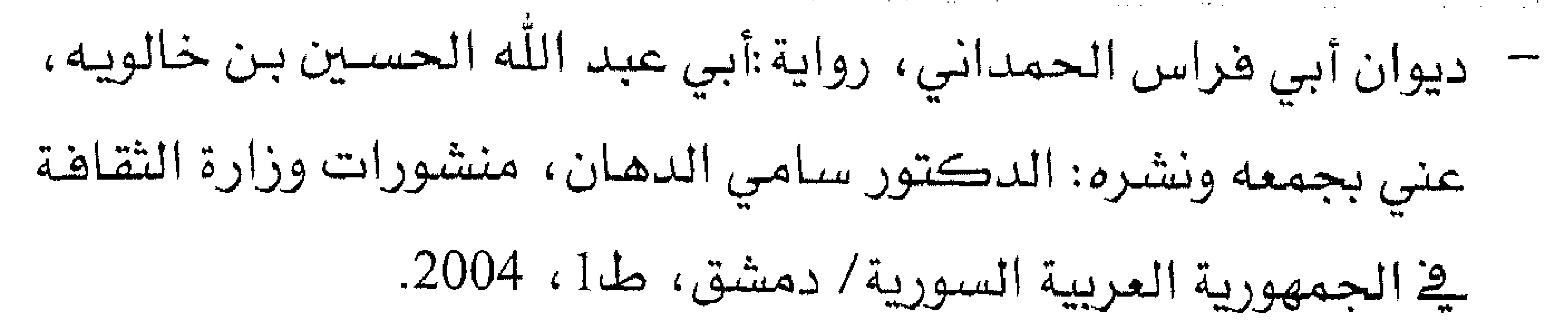
80-م. ن / 72.





المصادر والمراجع

- ابن بسام، حياته وشعره، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، ج2، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1407هـ - 1987م.
- ابن وكيع التِّنِّيسي شاعر الزهر والخمر، جمع شعره وحققه: الدكتور حسين نصّار، الناشر: مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، 1373هـ - 1953م.
- أبو فراس الحمداني، أحمد أبو حاقة، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر- بيروت، ط2، 1963.
- الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الدكتور محمد زكي العشماوي، الهيأة المصرية العامة للكتاب- فرع الاسكندرية، مطابع عابدين- اسكندرية، ط2، 1974 [تاريخ المقدمة].
- أصول النقد الأدبي، تأليف: أحمد الشايب، ملتزم الطبع والنشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط5، 1374 هـ - 1955م.
- ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق: الدكتور حسين نصّار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ج3، شارك في تحقيق هذا الجزء: د: سيدة حامد، د. محمد عادل خلف، زينب القوصي، منير المدني، طبعة ثالثة منقحة، 1424هـ - 2003م.
- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزّام، دار المعارف بمصر، ط2، 1969.



- ديوان أبي فراس الحمداني، رواية :أبي عبد الله الحسين بن خالويه، عني بجمعه ونشره: الدكتور سامي الدهان، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية/ دمشق، ط1، 2004.
- ديوان البحتري، عني بتحقيقه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، د.ت.
- ديوان الحَمْدَوي، جمع وتحقيق: أحمد النجدي، مجلة المورد، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الاعلام – الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد، م2، ع3، 1393هـ - 1973م.
- ديوان كشاجم، محمود بن الحسين، دراسة وشرح وتحقيق: الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط1، 1417 هـ - 1997م.
- شعر ابن المعتز، صنعة: أبي بكر بن محمد بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة – بغداد، 1398هـ - 1978م.
- من النقد والأدب، المجموعة الرابعة، بقلم: الدكتور أحمد أحمد بدوي، ملتزم الطبع والنشر: مكتبة نهضة مصر بالفجالة، د.ت.

لمحات في الشعر العباسي





المملكة الأردنية الهاشمية
عمان - الاردن - العبدلي - شارع الملك حسين
قرب وزارة المالية - مجمع الرضوان التجاري رقم 118
هاتف: 4616436 6 962+ فاكس: 4616435 6 962+
ص. ب. : 926414 عمان 11190 الأردن
E-Mail: GM@REDWANPUBLISHERS.COM
GM.REDWAN@YAHOO.COM
WWW.REDWANPUBLISHERS.COM

